فتح خفي الألطاف

بتفسير

سورة ق



الدكتور حسين عامر


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان، وجعله نورًا للقلوب، وشفاء لما في الصدور، وموعظة للمتقين، وحجة على العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي أنزل الله عليه الكتاب، وعلّمه الحكمة، فبلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، أنزله لهداية الإنسان وإخراجه من ظلمات الجهل والشك والغفلة إلى نور الإيمان واليقين والبصيرة، قال تعالى: ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ **[المائدة: 15-16]** وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الترداد، ولا يستغني عنه المسلم في إصلاح قلبه، وتقويم سلوكه، وبناء تصوره عن الله والإنسان والحياة والموت والدار الآخرة.

وقد جعل الله تعالى تلاوة القرآن عبادة، ورتب على كل حرف منه أجرًا، غير أن المقصود من إنزاله لا يقف عند حدود التلاوة وحسن الأداء، على عظم فضلهما، بل يتجاوز ذلك إلى فهم معانيه، وتدبر آياته، والاهتداء بهديه، والعمل بأحكامه، والاتعاظ بوعده ووعيده، قال تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ **[ص: 29]** وتدبر القرآن إنما يكون بتلاوته مع استشعار القارئ لعظمة الله الذي يخاطبه، وأن كل أمر فيه يدعوه إلى الامتثال، وكل نهي يحذره من المخالفة، وكل قصة تسوق إليه عبرة، وكل وعد يفتح له باب الرجاء، وكل وعيد يبعث في نفسه الخشية والاستعداد.

وشرف القرآن مستمد من كونه كلام رب العالمين؛ ولذلك شرف الله كل من اتصل به علمًا وعملًا وتعليمًا، فالشهر الذي أنزل فيه خير الشهور، والليلة التي ابتدأ نزوله فيها خير من ألف شهر، والرسول الذي تلقاه من الملائكة هو جبريل الأمين،

والرسول الذي أنزل على قلبه هو محمد ﷺ خاتم النبيين، والأمة التي حملته خير أمة أخرجت للناس ما أقامت حدوده واهتدت بهديه.
وخير المؤمنين من تعلم القرآن وعلمه لغيره كما قال النبي ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" رواه البخاري.

ومن هذا المنطلق جاء هذا الكتاب محاولة للانتفاع من هدايات سورة عظيمة من سور القرآن الكريم، هي **سورة ق**، والتوقف مع آياتها وقفات تفسيرية وإيمانية وتربوية.

وقد وقع الاختيار على هذه السورة المباركة لما لها من منزلة كبيرة لدرجة أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في المجامع الكبرى، فكان يخطب بها على المنبر يوم الجمعة وكان يقرأها في صلاة العيد؛ كما في الحديث **عن أم هشام بنت حارثة رضي الله عنها أنها قالت: "ما أخذت ق والقرآن المجيد إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس" رواه مسلم.**

وتكرار قراءتها في هذه المواطن يدل على عظم شأنها، وشدة حاجة النفوس إلى معانيها، وما تشتمل عليه من تذكير وإنذار وإيقاظ.
وقد بيّن الحافظ ابن كثير رحمه الله أن النبي ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

فهي سورة قصيرة في عدد آياتها، عظيمة في مقاصدها، قوية في فواصلها، متتابعة في مشاهدها، تنقل قارئها من إنكار المشركين للبعث إلى دلائل القدرة في السماء والأرض، ومن مصارع المكذبين إلى إحاطة علم الله بالإنسان، ومن سكرة الموت إلى النفخ في الصور، ومن الحشر والعرض إلى الحساب والجزاء، ثم تعرض مشهدي النار والجنة، وتختم بالأمر بالتذكير بالقرآن.

والمقصد الجامع للسورة هو إيقاظ قلب الإنسان من الغفلة، وإقامة الحجة عليه في حقيقة البعث والجزاء، حتى يستعد للقاء الله بقلب منيب وعمل صالح، وهي لا تعرض الآخرة على أنها خبر بعيد، بل تسوق مشاهدها بأسلوب يجعل السامع كأنه يراها رأي العين؛ فيعاين سكرة الموت، ويسمع نفخة الصور، ونداء المنادي، ويشاهد تشقق الأرض عن الخلائق، ويرى السائق والشهيد، ويسمع الخصومة بين الإنسان وقرينه، ثم يقف أمام مشهدي الجنة والنار، وهذا العرض الحي من أعظم ما يعالج قسوة القلب، وطول الأمل، والاغترار بالدنيا.

فجاء اختيار هذه السورة رغبة في وصل التلاوة بالفهم، والحفظ بالتدبر، والمعرفة بالعمل؛ ليقرأها المسلم بعد ذلك قراءة جديدة، حاضر القلب، مدركًا لتسلسل موضوعاتها، مستشعرًا لخطابها ووعيدها وبشارتها.

منهجية التفسير في هذا الكتاب

سلكت في هذا الكتاب منهجًا تفسيريًا تربويًا يقوم على السير مع آيات السورة بحسب ترتيبها، مع تقسيمها إلى وحدات موضوعية مترابطة، وجعلت كل وحدة في فصل مستقل بحسب موضوعها وموقعها من مقصد السورة. فجاء الكتاب في عشرة فصول تناولت القرآن المجيد وحقيقة البعث، وآيات الله الكونية الدالة على قدرته، والوعيد الإلهي للمكذبين، وإحاطة علم الله بالإنسان، وحقيقة الموت ونفخة البعث والنشور، ومشهد العرض والخصومة بين يدي الله، والقرين والخصومة يوم القيامة، ومشهد الجنة والنار، ثم خاتمة السورة في الأمر بالتذكير بالقرآن.

واعتمدت في بيان المعاني على تفسير القرآن بالقرآن؛ لأن آياته يصدق بعضها بعضًا، ويفسر بعضها بعضًا، ثم على ما صح من سنة النبي ﷺ، وعلى ما نُقل عن الصحابة والتابعين وأئمة التفسير، واستفدت من أقوال العلماء المتقدمين والمتأخرين، مع عرض أشهر الأقوال عند تعددها، وبيان ما يظهر رجحانه في ضوء السياق والدليل، والوقوف فيما استأثر الله بعلمه من أمور الغيب، بعيدًا عن التكلف والجزم بغير برهان.

واهتممت بشرح المفردات والتراكيب التي يحتاج القارئ إلى بيانها، وبيان الدلالات اللغوية التي تعين على فهم الآيات، وربط كل آية بسياقها وبالمقصد العام للسورة. كما حرصت على بيان التناسب بين المقاطع، وتسلسل الحجج والمشاهد، حتى لا يقرأ القارئ الآيات متفرقة عن بنائها الكلي؛ فالسورة وحدة متماسكة تبدأ بإنكار البعث وتنتهي بالتذكير به والإنذار بالقرآن.

واعتنيت بإيراد الأحاديث والآثار ذات الصلة، مع بيان درجتها عند الحاجة، والتنبيه على ما لا يصح نسبته إلى النبي ﷺ، أو ما اشتهر بين الناس من قصص وأقوال تحتاج إلى تحرير.

كما تناولت بعض المسائل العقدية والفكرية التي تثيرها الآيات، مثل حقيقة الوحي، وإثبات البعث، وعلم الله، وكتابة الأعمال، وحقيقة الموت، والقرين، والجنة والنار، مع الرد على بعض الشبهات والمفاهيم الخاطئة بأسلوب واضح قريب.

ولم أقصد جمع كل ما قيل في السورة، ولا إلى استقصاء المسائل اللغوية والفقهية والعقدية المتعلقة بها؛ فإن ذلك يخرج بالكتاب عن غايته، وإنما قصدت تقديم تفسير يجمع بين صحة المعنى ووضوح العبارة وحضور الأثر الإيماني والتربوي، مع قدر من التفصيل يعين القارئ على الفهم، دون أن يغرقه في الخلافات والاستطرادات التي لا يحتاج إليها.

أيضا حرصت في نهاية كل فصل أن أذكر الآثار الإيمانية والتربوية، واستخراج الهدايات العملية بخلاصة مركزة تسهل مراجعة المعاني وتثبيتها واستعمالها في التعليم والمواعظ والدروس.

وقد حرصت بفضل الله على أن يكون هذا التفسير مناسبا لطلاب العلم وللأئمة والخطباء والوعاظ ومعلمي القرآن، ولمن يقدمون الدروس الإيمانية والتربوية في المساجد والمراكز الإسلامية.

كما يمكن أن ينتفع به الآباء والأمهات والمربون في تذكير أبنائهم بحقائق الإيمان والموت والآخرة، وأن يكون مادة للمدارسة في الحلقات القرآنية والمجالس الأسرية والبرامج الدعوية.

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه ومعلمه، وأن يحيي بالقرآن قلوبنا، ويشرح به صدورنا، ويجعله حجة لنا لا علينا، ونورًا لنا في الدنيا، وأنيسًا في القبر، وشفيعًا يوم القيامة، وأن يرزقنا قلوبًا منيبة تخشى وعيده وترجو رحمته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وكتبه

د. حسين عامر

مدينة لافال- كندا

غرة شهر ربيع الأول 1448

التمهيد

مقدمة بين يدي السورة

- سبب التسمية.

- ما ورد في فضل السورة.

- موضوعات السورة.

مقدمة بين يدي السورة

أولا/ سبب التسمية:

سورة (ق) هي السّورة الخمسون من حيث ترتيب سور القرآن، وهي سورة مكيّة؛ وقد سُميت بهذا الاسم لأنها تبدأ بالحرف المقطّع "ق"، وهو أسلوب متبع في عدة سور قرآنية (مثل ص، طه، ويس) وسيأتي بيان معناها في التفسير بعون الله.

ثانيا/ ما ورد في فضلها:

ورد في سورة ق عدة أحاديث:

1- عن أم هشام بنت حارثة رضي الله عنها قالت: ما أخذتُ (ق والقرآن المجيد) إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس". رواه مسلم.

2- وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الفطر والأضحى؟ فقال :كان يقرأ بـ(ق والقرآن المجيد)، و(اقتربت الساعة)" رواه مسلم

3- وعن جابر بن سمرة قال :إن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) وكان صلاته بعدُ تخفيفًا.) رواه مسلم.

قال ابن كثير رحمه الله:" كان رسول الله ﷺ يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب، والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب " [1]

سورة ق بداية المفصل

وعلماء القرآن يسمون السور من أول سورة ق وحتى سورة الناس بالمفصل، وقد ورد في الحديث عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (أُعْطِيتُ مكانَ التوراةِ السبعَ الطِّوال، وأُعْطِيتُ مكانَ الزبورِ المِئين،

---

[1] "تفسير ابن كثير" (7/ 367).

وأُعْطِيتُ مكانَ الإنجيلِ المثاني، وفُضِّلتُ بالمُفَصَّلِ) رواه الإمام أحمد وصححه الشيخ أحمد شاكر، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة

معنى الحديث:

- **السبع الطوال :البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال مع براءة .**
- **المِئون :السور التي تقارب آياتها المئة .**
- **المثاني :السور التي دون المئين وفوق المفصل .**
- **المفصل :السور التي تبدأ – على الراجح – من سورة ق إلى سورة الناس، وسمي مفصلًا لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:" أول المفصل من ق إلى آخر القرآن على الصحيح، وسمي مفصلا لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة على الصحيح.** ((1))

ثالثا/ موضوعات السورة

يمكن تلخيص المقصد الأساسي لسورة ق بأنه: إيقاظ القلب من الغفلة، وإقامة الحجة على الإنسان في حقيقة البعث والجزاء، حتى يستعد للقاء الله .

ولذلك تدور السورة من أولها إلى آخرها حول قضية الآخرة، لكنها لا تعرضها مجرد خبر، بل تسوق الأدلة والمشاهد والمواعظ التي تجعل البعث والوقوف بين يدي الله كأنه حاضر أمام السامع.

ويمكن وصف موضوعات السورة وتسلسلها على النحو الآتي:

1. **إثبات البعث والرد على منكريه**

افتتحت السورة بتعجب الكافرين من مجيء الرسول ومن إخبارهم بأنهم سيبعثون بعد الموت، فبيَّنت السورة أن استبعادهم للبعث لا يقوم على دليل، وأن الله يعلم ما تأكل الأرض من أجسادهم، وكل شيء محفوظ عنده.

(1)باختصار يسير من "فتح الباري" (259/2)

2.**الاستدلال على البعث بآيات القدرة في الكون**

انتقلت السورة إلى السماء والأرض والجبال والنبات والمطر وإحياء الأرض بعد موتها، وهذا يخدم مقصد السورة مباشرة :فالذي يحيي الأرض الميتة قادر على إحياء الإنسان بعد موته .

3.**الاستدلال بمصير المكذبين السابقين**

ذكرت السورة قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع، والمراد ليس مجرد سرد للتاريخ، وإنما تحذير مشركي مكة وكل مكذب أن من كذب بالرسل والبعث والوعيد فسنة الله الجارية في إهلاك المكذبين واضحة أمامكم في الأمم السابقة.

4.**إثبات القدرة على الخلق الثاني بالخلق الأول**

وهذه حجة عقلية أن من قدر على إنشاء الإنسان أول مرة، لن يعجز عن إعادته.

5.**إثبات علم الله التام بالإنسان**

بعد إثبات قدرة الله على البعث، تقرر السورة أن الحساب كذلك قائم على علم الله المحيط بالإنسان؛ فلا يخفى على الله ظاهر ولا باطن، مع إثبات حفظ الأعمال وتسجيلها من قبل الملكين الموكلين بذلك، وهذا ينقل قضية القيامة من كونها قضية مستقبلية فقط إلى أن كل أعمال الإنسان مسجلة ومكتوبة؛ فما سيحاسب عليه يوم القيامة هو ما قام به من أعمال في الدنيا.

6.**مشهد الموت والانتقال إلى الآخرة**

بعد أن أقامت السورة الأدلة العقلية والكونية على البعث، تبدأ بعرض المشاهد نفسها: الموت، ثم النفخ، ثم الحشر، وكأنها رأي عين؛ فما كان يسمعه الإنسان في الدنيا تحول الآن إلى حقيقة مشاهدة؛ وهذا من أقوى أساليب السورة في معالجة الغفلة.

7.**مشهد الحساب والخصومة والجزاء**

تعرض السورة شهادة القرين، ثم الأمر بإلقاء الكافر العنيد في جهنم، ثم خصومة الإنسان وقرينه، ثم تأتي قاعدة العدل الإلهي أن الحساب ليس ظلمًا؛ فقد سبق الإنذار، وحُفظ العمل، وقامت الحجة.

8.**مشهد جهنم والجنة**

وهذا يحقق جانب الترهيب والترغيب؛ فالسورة لا تكتفي بإثبات البعث، بل تبين إلى أين ينتهي الطريقان، مع ذكر صفات أهل النار ثم ذكر صفات أهل الجنة

9.**تسلية النبي ﷺ وتوجيهه إلى الصبر والعبادة**

فالإيمان بالآخرة لا يثمر خوفًا فقط، بل يثمر **الصبر والثبات والعبادة**.

10.**خاتمة السورة تعود إلى مقصدها الأول: البعث والإنذار بالقرآن**

وهذه الخاتمة شديدة المناسبة لأول السورة: بدأت السورة بإنكار الكفار للبعث، وانتهت بالأمر بتذكير من يخاف وعيد الله بالقرآن.

الخلاصة

يمكن تلخيص أهم موضوعات سورة ق على النحو التالي:

إنكار البعث ← إقامة أدلة القدرة عليه ← ذكر مصير المكذبين

إثبات علم الله بالإنسان وأعماله ← الموت ← البعث ← الحشر

الشهادة والحساب ← النار وصفة أهلها ← الجنة وصفة أهلها

الأمر بالصبر والعبادة ← التذكير بالقرآن.

وبذلك خَدَمت جميع موضوعات السورة مقصدًا واحدًا :أن تزيل غفلة الإنسان عن الآخرة، وتجعله يستيقن أنه مخلوق مراقب، وأنه سيموت ويبعث ويوقف بين يدي الله ويجازى على عمله؛ فيستعد لذلك اليوم بقلب منيب وعمل صالح.

****

الفصل الأول

القرآن المجيد وحقيقة البعث

قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق: 1-5]

الفصل الأول

القرآن المجيد وحقيقة البعث

لما بعث اللهُ رسولَه ﷺ، عمد المشركون إلى إثارة شبهتين بالغتي الخبث، أرادوا بهما الطعن في أصل الرسالة ونقض ما جاء به النبي ﷺ؛ حتى إذا نُفيت رسالته من عند الله، سقط في زعمهم وجوب الإيمان بالقرآن وما تضمَّنه من الأوامر والنواهي، والحلال والحرام، كما يسقط التصديق بما أخبر به من البعث والحساب والجزاء.

الشبهة الأولى: شبهة إنكار الوحي:

ومعنى إنكارهم للوحي: زعمهم أن هذا القرآن ليس كلام الله تعالى، وإنما هو كلام بشر؛ ليترتب على ذلك ـ في زعمهم ـ أنه لا يلزمهم اتباعه، وأن لهم أن يقبلوا منه ما شاءوا ويردوا ما شاءوا.

ولهذا حاولوا إلحاق القرآن بأجناس كلام البشر التي يعرفونها؛ فقالوا تارة: إن محمدا ﷺ شاعر، وإن ما جاء به شعر لما رأوا فيه من قوة البيان وجمال الأسلوب وعظيم التأثير، فلما كان القرآن مباينا لأوزان الشعر وبحوره المعهودة عند العرب فلما كان القرآن لا يجري على أوزان الشعر وبحوره المعروفة عند العرب، ظهر بطلان دعواهم أنه شعر. [1]

فانتقلوا إلى دعوى أخرى، فقالوا: بل هو كهانة؛ لما اشتمل عليه من الإخبار ببعض المغيبات. غير أن القرآن مباين كذلك لكلام الكهان وأسجاعهم المتكلفة.

ثم لما عجزوا عن تصنيفه ضمن كلام البشر، ورأوا ما يحدثه سماعه من أثر عظيم في النفوس والقلوب، قالوا: إنما هو سحر، وإن محمدًا ﷺ ساحر.

وهكذا تنقل المشركون بين دعاوى متناقضة مضطربة :**شعر، وكهانة، وسحر**، يجمعها مقصد واحد، وهو إنكار أن القرآن وحي من عند الله تعالى؛ ليصلوا من

---

[1] بحور الشعر هي الأوزان والقوالب الإيقاعية التي نظم عليها العرب أشعارهم، ولكل بحر وزن محدد وتفعيلات منتظمة يسير عليها البيت الشعري، ومن أشهرها :الطويل، والبسيط، والكامل، والوافر، والرجز، والمتقارب وغيرها؛ فمثلًا عندما نقول: القرآن ليس على بحور الشعر؛ فالمعنى أن القرآن، مع ما فيه من عظمة البلاغة وجمال الإيقاع، لا يجري على الأوزان الشعرية المنتظمة التي عرفها العرب ونظموا عليها أشعارهم.

وراء ذلك إلى إسقاط حجيته، والتملص من وجوب اتباع النبي ﷺ فيما جاء به من عند ربه.

الشبهة الثانية: إنكار البعث:

أما الشبهة الثانية التي أثارها المشركون فهي **إنكار البعث بعد الموت**؛ فقد زعموا أن حياة الإنسان تنتهي بموته، وأنه لا حياة بعد هذه الحياة، ولا بعث ولا نشور، فقالوا كما حكى الله عنهم :﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ [الجاثية: 24]

ومقتضى هذا الاعتقاد الفاسد أن تنتهي حياة الناس جميعًا بالموت دون حساب أو جزاء؛ فلا فرق في العاقبة بين مؤمن وكافر، ولا بين مطيع وعاصٍ، ولا بين ظالم وعادل؛ إذ الجميع ـ بزعمهم ـ يموتون ثم لا يبعثون من قبورهم.

ومن هنا كان إنكار البعث بابًا إلى إنكار ما يترتب عليه من **الحشر والحساب والجزاء، والثواب والعقاب، والجنة والنار**. ولذلك جادل المشركون في البعث، واستبعدوا إحياء الأجساد بعد أن تصير ترابًا، وكابروا ما جاءت به الرسل من الإخبار باليوم الآخر.

أما المؤمن الذي أيقن أن القرآن كلام الله تعالى، فإنه ينطلق من أصول راسخة:

- يؤمن بأن **القرآن كلام الله تعالى، وليس كسائر كلام البشر**.
- ويوقن بأن **كل ما أخبر الله به في كتابه حق وصدق لا مرية فيه**.
- ويستشعر أن القرآن **خطاب من الله لعباده**؛ فيحرص على فهمه وتدبره والعمل بما أمر الله به فيه.
- ويوقن **بالبعث بعد الموت والوقوف بين يدي الله للحساب والجزاء**؛ فيحمله هذا اليقين على اغتنام حياته والاستعداد للقاء ربه.
- ويعلم أن **الحياة الدنيا دار ابتلاء وعمل، وأن الإقامة فيها مؤقتة، أما الآخرة فهي دار البقاء والجزاء**.

ومن هنا تظهر خطورة إنكار البعث؛ فالإيمان باليوم الآخر ليس مجرد قضية عقدية نظرية، وإنما هو **حقيقة كبرى تضبط نظرة الإنسان إلى الحياة كلها**؛ فمن أيقن أنه

سيقف بين يدي الله ويحاسب على عمله، عاش في الدنيا مستعدًا للآخرة، وجعلها مزرعة يتزود منها للقاء ربه.

قوله تعالى: (ق)

افتتح الله عز وجل هذه السورة بقوله: **(ق والقرآن المجيد)** والراجح لديّ من كلام العلماء أن الأحرف المقطعة في فواتح السور هي إشارة إلى تكذيب ما زعمه المشركون: أن القرآن ليس كلام الله، وأن محمدا ﷺ جاء به من عند نفسه، وذلك لأن أكثر السور المفتتحة بالحروف المقطعة جاء بعدها ذكر القرآن:

- قال تعالى: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 1-2]
- ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 1-2]
- ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: 1-2]
- ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: 1]
- ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: 1]

وإذا سلمنا جدلا أنه قد جاء به من عند نفسه؛ وأن محمدا ﷺ شاعر كما تزعمون، فالشاعر يقول القصيدة، وهناك من هو أشعر منه وأبلغ وأفصح ... فمن الممكن لأي شاعر منكم أن يأتي بقصيدة أخرى تفوق قصيدته، ويأتي شاعر ثالث يتفوق عليهما، فإذا كان القرآن من صنع البشر فجدير بالبشر أن يتباروا ويتنافسوا على أن يأتوا بكلام يماثله؛ فجاءهم التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23]

فلما عجزوا عن ذلك كانت النتيجة الحتمية أن قولكم هذا قول باطل، وثبت أن القرآن ليس كلام بشر؛ إنما هو كلام الله عز وجل.

وافتُتحت سور عديدة بهذه الحروف المقطعة، وجاء في كثير منها ذكر القرآن عقبها: **(الم، وطه، وطسم، ويس، وص، وق، ون)** هذه حروف الهجاء، والعرب

قادرون على تأليف كلامهم من هذه الحروف، لكنهم عجزوا عن الإتيان بكلام يماثل القرآن في نظمه وبلاغته وهدايته.

وكان بعض العرب يزعمون أن لكل شاعر تابعًا من الجن يلهمه الشعر، وهو اعتقاد جاهلي لا دليل على صحته. ((1))

وعلى فرض ما كان يزعمه بعضهم من استعانة الشعراء بالجن، فإن الإنس والجن جميعًا عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن، فلن يستطيع الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]

أي معاوناً ونصيراً.

فنزل القرآن بلسان عربي مبين؛ كلماته مكونة من هذه الأحرف: (الألف واللام والميم والصاد والطاء والياء)، فلو كان كما زعمتم أنه من صنع البشر، وكانت كلمات القرآن مكوَّنة من الحروف نفسها التي تنطقون بها في كلامكم؛ فأتوا بسورة من مثله، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 23-24]

لماذا افتتح الله تعالى سورةً بحرف ﴿ق﴾، وأخرى بحرف ﴿ص﴾، وثالثة بـ ﴿طس﴾، ورابعة بـ ﴿طسم﴾؟ ولماذا اختيرت هذه الحروف دون غيرها؟

هذا ما يسميه العلماء بالمتشابه، وهذا من المتشابه الذي خفي علينا المراد التفصيلي منه؛ فلا نعلم على وجه القطع لماذا اختار الله تعالى هذه الحروف بعينها دون غيرها؟

((1)) وذكر مصطفى صادق الرافعي في تاريخ آداب العرب (41/3) أن أصل هذا الاعتقاد يُحتمل أن يكون مأخوذًا من الكهانة؛ إذ كان لكل كاهن في زعمهم «رئي» أو تابع، ثم نُقلت الفكرة إلى الشعراء، وربما كان ذكر «شيطان الشاعر» أحيانًا مثلًا أو كناية عن قوة القريحة والغضب والفطنة، لا إخبارًا حقيقيًا عن جنيّ معين.

فقد اختار سبحانه حرف ﴿ق﴾ فاتحةً لهذه السورة دون غيره؛ فهذا من المتشابه الذي نقول فيه: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7] فالله تعالى له حكمة في ذلك ولا شك وقد يُطلع الله بعض عباده على شيء من حكمتها، وقد يستأثر بعلم حقيقتها ومراده التفصيلي منها.

قوله تعالى: (والقرآن المجيد)

أقسم الله تعالى بالقرآن المجيد، والمجيد مشتق من المجد وهو العلو والشرف؛ ويكتسب الكلام شرفه من قائله ومما يشتمل عليه من المعاني والفوائد، والقرآن الكريم كلام الله عز وجل، وليس من كلام البشر ولا من صنعة شاعر، وقد اشتمل على الخير والهدى؛ فكان قرآنًا مجيدًا، عالي القدر، عظيم الشرف على سائر الكلام.

شرف القرآن وشرف ما اتصل به:

- **الشهر الذي أنزل فيه القرآن هو خير الشهور ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: 185]**

- والليلة التي أنزل فيها القرآن ليلة القدر، والمراد بإنزاله فيها: ابتداء نزوله على النبي ﷺ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1] فشرف الله هذه الليلة فجعل العبادة فيها خيرًا من عبادة ألف شهر.

- وشرف جبريل عليه السلام، رسولِ الله من الملائكة، إذ نزل بالقرآن على قلب محمد ﷺ، رسولِ الله من البشر؛ فوصفه بالقوة والمكانة والتمكين فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: 19-20] أي له مكانة كبيرة عند الله.

- ونبينا محمد ﷺ الذي أنزل عليه القرآن هو خير خلق الله.

- والأمة التي أنزل عليها القرآن خير أمة أخرجت للناس.

- وإذا عملت الأمة بكتاب الله صارت من أعز الأمم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 44] قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي شرف لك ولقومك.

- بل إن خيارنا وأفضلنا عند الله عز وجل من أكرمه الله تعالى بحفظ القرآن وتعليمه، كما قال النبي ﷺ **(خيركم من تعلم القرآن وعلمه)** رواه البخاري.

فكل من اتصل بكتاب الله تعالى علمًا وعملًا وتعليمًا نال من الشرف والرفعة بقدر صلته به، اللهم شرفنا بشرف القرآن واجعلنا من أهل القرآن.

وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول النبي ﷺ: (يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها) رواه أبو داوود

فقوله: (والقرآن المجيد) هذا قسم من الله، والعظيم لا يقسم إلا بعظيم فأقسم بالقرآن المجيد، أي: ذي الشرف والرفعة، **فما هو جواب القسم؟**

اختلف المفسرون في جواب القسم؛ فقيل: هو محذوف، وتقديره: لتُبعثُنَّ، ويدل عليه سياق الآيات، وقيل: تقديره: إنك لمن المنذرين، وقيل غير ذلك.

يقول تعالى: (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) [ق:2]

أصابهم العجب أن قد جاءهم رسول منهم يعرفونه جيدا، فقد عاش بينهم قبل البعثة وقبل نزول الوحي عليه أربعين سنة وكانوا يعرفون نسبه وأهله، وسائر أحواله، وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين، ولم يجربوا عليه كذباً قط.

فلم يكن غريبًا عنهم، ولا مجهول السيرة، بل كان واحدًا منهم، يعرفون نسبه وصدقه وأمانته؛ إنما هو واحد منهم، ولو كان الكذب من طبعه لعرفوا ذلك منه قبل البعثة، ولو أراد الفخر والسيادة لطلبهما بطرق كثيرة، ثم بُعث في سن الأربعين، وهي سن اكتمال العقل والنضج، فقال لهم: إني رسول الله؛ وكانت سيرته السابقة من أقوى الشواهد على صدقه، مع ما أيّده الله به من البراهين والمعجزات؛ لكنهم استغربوا ما جاء به من تصحيح عقائدهم المنحرفة ودعوتهم إلى توحيد الله؛ فقد كانوا يعبدون أصناماً من الحجارة، ويسمونها آلهة، فجاءهم النبي ﷺ يقول لهم:

قولوا: " لا إله إلا الله تفلحوا " فجعلوا يتعجبون **(أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) [ص: 5]**

وبين لهم رسول الله ﷺ أن الحياة الدنيا ليست النهاية؛ بل إنها دار ابتلاء واختبار، وأن الله سيبعث الناس من قبورهم فيجازيهم على أعمالهم.

وجاء أحد المشركين وهو أبي بن خلف إلى النبي ﷺ، وفي يده عظم بالٍ قديم، وهو يفتّه بيده، ويقول: يا محمّد! أتزعم أنّ الله يبعث هذا؟ فقال له رسول الله: (نعم! يميتك الله تعالى، ثمّ يبعثك، ثمّ يحشرك إلى النار)، فنزلت آيات أواخر سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 77-83]

إذاً فعجبوا أن جاءهم رسول لينذرهم ويخوفهم من عذاب الله إن بقوا على كفرهم، وشركهم فقالوا: إن ما جاء به شيء عجيب.

قوله تعالى: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: 3]

وقالوا متعجبين: أإذا متنا وكنا تراباً سنعود مرة أخرى؟

(ذلك رجع بعيد) رجع أي إعادة، يقصدون بذلك عودةً بعيدةَ الوقوع في زعمهم، بل مستحيلة عندهم.

وسبب هذا الزعم أنهم قاسوا قدرة رب العالمين بقدرتهم البشرية المحدودة؛ فإحياء الموتى مستحيل لا يستطيعه بشر؛ فأنَّى للبشر أن يحيوا ميتًا بعد موته؟ أما بالنظر إلى قدرة رب العالمين، فإن الله على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء.

المدرسة العقلانية والإيمان بالغيب[1]:

بعض أتباع المدارس العقلانية لا يؤمنون إلا بالشيء الذي يخضع للقوانين والتجربة المعملية، فأخضعوا كل ما في الوجود لهذا المعيار، وكل ما لا يتفق مع إدراك عقولهم فإنهم يردونه.

وهذا وهم كبير لأن معنى هذا التوجه الذي نتعامل به مع حقائق الكون أن يكون الإنسان قد بلغ من العقل والإدراك مبلغًا يستطيع معه أن يدرك كل شيء في الكون، وأن ينظم ويرتب كل قوانين الكون؛ أنى لهم ذلك والإنسان مخلوق ضعيف: سمعه له حد، وبصره له حد، وعقله له حد.

ولذلك لما تكلم القرآن عن حقيقة الروح، وأنها سر من أسرار الله في الخلق، قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85] فمهما أوتيتم من العلم فلن تبلغوا مرحلة إدراك حقيقة الروح وما يترتب على حياة الأجساد بقدرة الله رب العالمين.

إذاً فالعقل يأتي تابعاً للوحي، وليس الوحي تابعاً للعقل.

فكل ما جاء من ثوابت الإيمان في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يجب علينا الإيمان به والتصديق بما جاء في آيات ربنا وسنة نبينا ﷺ. فإن عجز العقل عن إدراك ذلك فإن الخلل في عقولنا، وليس في كلام الله تعالى، ولا في سنة رسوله ﷺ.

القدرة الإلهية المطلقة وبدء الخلق وإعادته:

قدرة الله لا تحدها حدود؛ وقدرة الله عز وجل ظاهرة في هذا الكون العظيم، ولذلك سيأتي في الآيات لفت الأنظار إلى الكون وما فيه: السماء وبنيانها، والأرض وامتدادها، والمطر وما أنبت الله به من النبات والحياة على هذه الأرض؛ للدلالة على أن هذه الأمور أكبر بكثير من إعادة إنسان إلى خلقته الأولى.

---

(1) المدرسة العقلانية اسم يُطلق على اتجاهات مختلفة يجمعها تقديم العقل بوصفه أداة أساسية في معرفة الحقائق والحكم على الأفكار، فالعقل عندهم مصدر رئيس للمعرفة، والإسلام لا يرفض العقل؛ بل يدعو إلى النظر والتفكر والاستدلال، لكنه يجعل النقل الصحيح والعقل الصحيح متوافقين، ولا يجعل العقل البشري المحدود حاكمًا مطلقًا على الوحي، إنما يأتي العقل مستنيرا بنور الوحي.

ومن البدهي عقلاً في المسألة: أن إعادة الخلق أيسر من ابتدائه؛ وليس في قدرة الله تعالى سهل ولا صعب، لكن هذا لتقريب الأمر في أذهان الخلق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: 27] أي بمقاييسكم البشرية، إن إعادة الخلق أيسر من ابتداء الخلق؛ فالذي يخلق من العدم هو الله عز وجل.

الله جل جلاله هو الذي يخلق من العدم:

أي عامل أو حرفي إذا أراد تصنيع شيء فإنه سيحتاج إلى مواد ليستطيع التصنيع بها، أما رب العالمين جل جلاله فإنه يخلق من العدم؛ إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، وهذه القدرة ليست لأحد غير الله عز وجل؛ فلا يخلق من العدم ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا مارد من الشياطين.

والرسل لما أرسلهم الله تعالى أجرى على أيديهم خوارق العادات.

ما معنى خوارق العادات؟

خوارق العادات هي :الأمور الخارجة عن السنن الكونية المعتادة التي يجريها الله تعالى على خلاف ما ألفه الناس، فلا تقع إلا بمشيئته سبحانه.

وخوارق العادات تشمل المعجزات التي يؤيد الله بها الأنبياء، والكرامات التي يكرم بها أولياءه، وكلها واقعة بمشيئة الله وقدرته، لا بقدرة ذاتية للمخلوق.

النار بطبيعتها تحرق، وأي إنسان يتعرض للنار يُحرق، لكن الله تعالى جعل هذا القانون الكوني معطلاً مع الخليل إبراهيم لما ألقوا به في النار: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69] هذه هي المعجزة، لكن الرسول لا يخلق من العدم.

والرسول ﷺ لما كان في الحديبية كان الصحابة في موقف صعب لأن الماء نفد منهم، ونزلوا مكانا ليس فيه ماء، فكانت معجزة نبع الماء من بين أصابعه ﷺ

والقصة يحكيها لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه قائلا: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة يتوضأ منها، فأقبل الناس نحوه، فقال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع النبي ﷺ

يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قال جابر :كنا ألفًا وأربعمائة.) رواه البخاري.

الرَّكْوة :إناء صغير يُصنع غالبًا من الجلد، يُحفظ فيه الماء للشرب أو الوضوء، وتشبه القِربة الصغيرة.

فالنبي لم يخلق من العدم، فليس من قدراته ذلك، إنما يجري الله على يديه المعجزات والآيات فوق العادة، على خلاف ما اعتاده البشر؛ للدلالة على أنه رسول رب العالمين.

عند بعض الطوائف من الصوفية مثلاً، يبرهنون على مكانة شيخهم بصلاحه وتقواه وبما يزعمونه من قدراتٍ خارقة، ويذكرون الحديث المكذوب المنسوب إلى النبي ﷺ عن رب العزة: **"عبدي أطعني أجعلك عبداً ربانياً تقول للشيء كن فيكون** "هذا حديث لا أصل له، لأن الذي يقول للشيء: كن فيكون هو الله، أما ولي الله المؤمن العارف بربه التقي ، فلا يملك أن يقول للشيء كن فيكون، إنما قد يجري الله على يديه بركة في استجابة الدعاء، بركة في التوفيق لعمل صالح، في هداية الخلق مثلاً، لكن أن يخلق من العدم هذا مستحيل؛ فهذا الأمر ليس لأحد إلا لله وحده.

الشياطين لا تخلق من العدم:

لا يستطيع أي شيطان أن يوجد شيئا من العدم؛ هذا ليس في قدرته، لكن يروَّج دائماً في القصص الخيالية وأفلام الإنمي الموجهة للأطفال أن الشياطين تحقق الأمنيات؛ وفي أفلام الخيال كسلسلة هاري بوتر الشهيرة عند الأطفال؛ القصة كلها مبنية على تعلم السحر والاستعانة بالشياطين، وأن الشياطين عندها قدرات خارقة وكبيرة، وكذلك قصة علاء الدين والمصباح السحري والجني الذي يحقق له كل ما يطلبه.

والآية الواردة بسورة النمل: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: 39] فليس معناه أنه سيوجد العرش من العدم، إنما بحكم قدرته العالية سيطير بسرعة ويأتي لسليمان بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين، إذن هو أتى بعرش موجود، ولم يوجده من العدم.

فالأفلام الخيالية ترسخ في اللاشعور عند أولادنا أن الشياطين توجد الأشياء من العدم، وأن الشياطين تقوم بتحقيق الأمنيات، هذا كله وهم أو فنتازيا واهمة كاذبة لا

أساس لها من الصحة، ولذلك يجب أن نربي أبناءنا على أن الذي يخلق من العدم هو الله وحده، وأن الشياطين لا تستطيع أن تخلق من العدم.

الفارق بيننا نحن البشر وبين قدرات الجن هو سرعة الحركة، وقوانين الحركة تختلف باختلاف جسم الإنسان وطاقته المحدودة في الزمان والمكان، وطاقة الجن وطبيعة خلقهم وقدرتهم على الحركة .

فالذي خلق جميع الإنس والجن والملائكة وكل العوالم، وهذا الكون من العدم، هل يعجزه أن يعيد الإنسان بعد موته؟

فالمسألة ليست متعلقة بإعادة الخلق على أنه خلق جديد، كلا بل سنعيد الخلقة الأولى، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 104]

قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: 4]

قد علمنا، لم يغب عن علمه جل وعلا، ما تنقص الأرض منهم.

وهذا من بلاغة التعبير القرآني لأن التحلل في جثة الإنسان يتم حيناً بعد حين، زمناً بعد زمن، حتى يتفتت ويبلى، وعلم كل ذلك عند الله.

الإعجاز العلمي في إعادة خلق الإنسان:

ولذلك لما أراد الله تعالى أن يبين لعباده طلاقة قدرته في إعادة الخلق **قال:** ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: 3-4]

والعلماء قديماً فسروا الآية على ظاهرها أن قدرة الله تعالى أن يعيد الخلق أو يعيد الناس إلى الخلقة الأولى، وأن كل شيء سيعاد إلى صورته وطبيعته، والبنان: الأصابع، إشارة إلى أنه إذا كان البنان سيعاد فمن باب أولى أن يعاد الكل.

لكن لماذا قال: (بنانه) على وجه التحديد؟

في القرن الماضي اكتشف العلماء بصمة الأصابع؛ هذه الخطوط التي رُسمت بشكل هندسي عجيب، اكتشف العلماء أنه ليس هناك إنسان على وجه الأرض تتشابه بصمته مع إنسان آخر.

وفي بدايات القرن العشرين بدأت الدراسات المختلفة عن البصمة، وأكدوا أنه ليس في العالم أجمع أي تشابه بين بصمة إصبع وإصبع، وبين توأم وصاحبه، وبين أب وابنه، فكل إنسان له بصمة خاصة لا تتكرر مع غيره، ولذلك اعتمدوا بعد ذلك موضوع البصمة في الأدلة الجنائية.((1))

فإذا كانت البصمة التي على الأصابع لا تتشابه بين إنسان وإنسان سيعيدها الله جل وعلا كما كانت، فما بالنا بما هو أكثر من ذلك .

فالله جل في علاه ذكر هذه الآية في سورة القيامة وتلاها نبينا ﷺ قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، حتى يأتي العلم ليكشف لنا جانبًا من الحكمة لماذا قال **"بنانه"** على وجه التحديد؟

وقال الشيخ الشعراوي رحمه الله: في تفسير **قول الله تعالى:** ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ **[فصلت: 53]** إن عطاء قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ ممتد في الزمان كله، وإن العلم يكشف للناس كل يوم جديدًا من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، بما يدل على قدرة الخالق.... ثم قال: فإنْ قلتَ: فلماذا لم تظهر هذه الآيات في زمن النبي ﷺ وفي زمن صحابته؟ قالوا: لو ظهرت هذه الآيات الكونية معاصرة لزمن النبي وصحابته لأفرغ القرآن معجزاته وآياته في قرن واحد، واستقبلت القرون التالية القرآن بدون عطاء جديد، وبدون آيات تبهرهم وتدلهم على قدرة الخالق سبحانه.
فالله تعالى أراد أنْ يظلَّ استقبال الأجيال للقرآن استقبالاً جديداً، بحيث يكون لكل جيل نصيب من عطاء القرآن ليثبت لنا أن الذي أنزل القرآن قديماً أخبر فيه بما يحدث في المستقبل، وأنه سبحانه إله واحد ليس معه شريك يردُّ عليه ما قال.

إذاً الله تعالى أحاط علمه بكل ذرة تتحلل في باطن الأرض من أي إنسان، وهو سبحانه سيعيده ويبعثه ويوقفه بين يديه للحساب والجزاء.

قال تعالى: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: 4]

((1)) وحصل أن إحدى عصابات المافيا لما قبض على أحد المجرمين منهم خافوا من اكتشاف بصمته في مكان الجريمة فقاموا برشوة طبيب ليكشط جلد الأصابع لهذا المتهم حتى تنمحي البصمة، وبقي ثلاثة أشهر حتى تعافى، ولما تعافى أخذوا بصمته فإذا بها عادت كما كانت بعد ثلاثة أشهر وكشط تام للجلد.

حفيظ هنا تفسر بمعنيين:

الأول: حفيظ بمعنى حافظ أي يحفظ الأعمال، وهو كتاب الأعمال الذي سجلت فيه الملائكة أعمال الخلق.

الثاني: حفيظ بمعنى محفوظ، وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير كل شيء، كما قال النبي ﷺ وهو محفوظ فلا يطلع عليه أحد إلا بإذن من الله تعالى، بمعنى أن الشياطين لا تسترق السمع ولا تنقل منه، لأن هذا محفوظ عند الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [سورة ق: الآية 5]

والحق هنا هو رسول الله ﷺ أو هو الإسلام.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [سورة ق: الآية 5]

ومَرج الشيء أي اضطرب واختلط، حتى أننا نقول في كلامنا: "هناك هرج ومرج" أي أمور مختلطة ومضطربة.

ظهر فيهم رسول الله وكانوا يعرفونه جيدا فقد كان معهم أربعين سنة قبل البعثة وقبل الوحي، ويلقبونه بالصادق الأمين.

فزعموا أنه مجنون!! فلما وجدوا أن التهمة غير ثابتة وليس لها دلائل، قالوا: كلا، هو يأتي بكلام يشبه أوزان الشعر، فهو شاعر.

فلما وجدوا أن القرآن لا يأتي على نسق ولا نظم ولا بحور الشعر، قالوا: هذا كلام عندما يقوله محمد يتأثر به من يسمعه فيؤمن بمحمد، إذن محمد يفرق بالقرآن بين العبد وسيده وبين الزوج وزوجته وبين الأب وابنه، ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: 24]

والسؤال: إذا كان النبي ساحراً لماذا سحر العبيد والنساء والأبناء ولم يسحركم أنتم؟

(فهم في أمر مريج) مضطرب قالوا نعبد هذه الأصنام المسماة آلهة وهؤلاء شفعاؤنا عند الله؛ أين تكون الشفاعة؟ يوم القيامة!!!

ومع هذا قالوا لا، ليس هناك يوم القيامة، نحن ننكر البعث.

إذاً فعندهم اضطراب، وهذا دائما شأن أهل الباطل.

الحجج زائفة مائعة، عندهم اضطراب وشك وتردد وحيرة وعدم ثبات.

أما الحق فإنه واضح ثابت قوي متماسك لا يتغير لا يتبدل.

فكل أهل الباطل في أمر مريج، وأهل الحق دائما ثابتين على الحق قائمين.

وهذا معنى قول رسول الله ﷺ :"الحقُّ أبْلَجُ والباطلُ لَجْلَجُ" أخرجه ابن حبان في صحيحه.

الحق أبلج أي كضوء الصبح، واضح قوي، لا فيه غبش ولا ظلمة؛ أبلج كضوء الصبح، **والباطل لجْلَج**، من اللجلجة وهي الاهتزاز والارتعاش وعدم الثبات.

الخلاصة: فهم في اختلاط واضطراب لا يعرفون ماذا يقولون عن محمد ولا عن الإسلام ولا يستقرون على قرار، لأنهم ليس عندهم أي رؤية صحيحة عما جاءهم به نبينا ﷺ.

الآثار الإيمانية والتربوية للآيات الكريمة

1. تعظيم القرآن واستشعار أنه كلام الله، وإذا أيقن العبد أن القرآن كلام ربه، تغيرت علاقته به؛ فلا يمر على آياته مرورًا سريعًا من غير تدبر، ولا يقرأه لمجرد تحصيل الأجر من غير اهتمام بفهم مراد الله، بل يستشعر عند قراءته أن الله يخاطبه ويوجهه ويعلمه ويحذره ويبشره، فإذا قرأ أمرًا سأل نفسه: هل امتثلت هذا الأمر؟ وإذا قرأ نهيًا نظر: هل اجتنبت ما نهاني الله عنه؟ وإذا قرأ وعدًا رجاه، وإذا قرأ وعيدًا خافه، وإذا قرأ خبرًا صدّقه من غير تردد.

2. ومن تعظيم القرآن ألا يجعل المسلم رأيه أو ثقافة عصره حاكمة على كلام الله، فيقبل من القرآن ما وافق هواه، ويتكلف رد ما لم يوافقه؛ وإنما يجعل القرآن هو الحاكم على أفكاره وأقواله وسلوكه.

3. أن يعلم المسلم أن معرفة الحق لا تكفي وحدها ما لم يصحبها تجرد من الهوى واستعداد للانقياد؛ فقد يعرف الإنسان صدق المتكلم، وتظهر له قوة الدليل، ثم يرفض الحق لأنه يخالف شهوة في نفسه أو عادة نشأ عليها أو مصلحة يخشى فقدها.

4. عدم جعل العقل البشري المحدود حاكمًا على الوحي؛ لأن قدرة المخلوق محدودة، أما قدرة الخالق فلا يعجزها شيء.

5. أن يعرف المسلم قدر عقله وحدوده؛ فالإسلام لا يلغي العقل، بل يدعوه إلى النظر والتفكر والاستدلال، ولكنه لا يجعله محيطًا بكل شيء، ولا يجيز له رد الخبر الصادق لمجرد أنه لم يدرك كيفيته.

6. اليقين بالبعث يغير نظرة الإنسان إلى الحياة، فمن أيقن أنه سيُبعث بعد موته، ويقف بين يدي الله، ويحاسب على أعماله، لم ينظر إلى الدنيا على أنها الغاية الأخيرة، ولم يجعل اللذة العاجلة أكبر همه.

7. يمنح الإيمان بالبعث حياة المؤمن معنى واضحًا؛ فهو يعلم من أين جاء، ولماذا يعيش، وإلى أين يصير؛ فلا يعيش تائهًا تحكمه الشهوات المتقلبة، بل يجعل لحياته غاية كبرى هي عبادة الله والاستعداد للقائه، ويصبح عمره رأس مال يتزود منه، ويدرك أن كل يوم يمضي يقربه من الآخرة.

8. التأمل في الخلق الأول يقوي اليقين بالإعادة؛ فالذي خلق الإنسان أول مرة من العدم، ويعلم ما تأكل الأرض من جسده، قادر على أن يعيده مرة أخرى.

9. الاستدلال بآيات الله المشاهدة على ما أخبر به من أمور الغيب، فإذا نظر إلى خروج النبات من الأرض الميتة، وإلى إحياء الأرض بالمطر، وإلى بناء السماوات والأرض، علم أن إعادة الإنسان بعد موته ليست مستحيلة على الله.

10. استحضار علم الله الشامل، وهذا المعنى يربي المسلم على الإخلاص؛ فلا يؤدي العبادة من أجل ثناء الناس، ولا يتركها إذا غابوا، لأن الله الذي يعلم علانيته يعلم سره؛ كما يمنعه من الخيانة والغش والظلم، ولو أمن العقوبة الدنيوية؛ لأنه يعلم أن الله مطلع عليه، وأن شيئًا من عمله لن يضيع.

11. التكذيب بالحق يورث الاضطراب والحيرة؛ فالباطل لا يستقر على حال؛ لأنه لا يقوم على أصل ثابت، فإذا سقطت حجة انتقل أصحاب الباطل إلى غيرها، أما الحق فمتماسك، يصدق بعضه بعضًا، ولا يحتاج صاحبه إلى تغيير أصوله كلما واجه سؤالًا جديدًا.

12. الحذر من الكبر الذي يمنع قبول الحق؛ ومن علامات التواضع للحق أن يقبله الإنسان ممن جاء به، وألا يحمل النصيحة على الإهانة، فالحق لا تقل

قيمته لأن قائله صغير أو فقير أو مخالف لنا في بعض الأمور، والباطل لا يتحول إلى حق لأن قائله عظيم المكانة.

المعنى الإجمالي للآيات:

1. كان النبي ﷺ يكثر من قراءة سورة ق في المجامع الكبرى لاشتمالها على أصول الإيمان الكبرى: بدء الخلق، والبعث، والحساب، والجنة والنار، والترغيب والترهيب.

2. من أبرز مقاصد السورة إثبات البعث وإقامة البراهين على قدرة الله تعالى على إحياء الناس بعد موتهم.

3. الحروف المقطعة تشير إلى إعجاز القرآن؛ فهو مكوّن من الحروف العربية التي يعرفها العرب، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله.

4. القرآن مجيد؛ أي عظيم الشرف، رفيع القدر، لأنه كلام الله تعالى، ومشتمل على أعظم الهداية والخير.

5. ينال العبد من الشرف بقدر صلته بالقرآن علمًا وتلاوةً وعملًا وتعليمًا.

6. كل ما اتصل بالقرآن نال شرفًا؛ فشرف شهر رمضان، وليلة القدر، وجبريل، والنبي ﷺ، والأمة، وأهل القرآن، إنما كان لاتصالهم به.

7. العقل الصحيح لا يعارض الوحي الصحيح، والعقل محدود، فلا يجوز ردّ حقائق الغيب لمجرد عدم إدراك كيفية وقوعها.

8. العقل تابع للوحي وليس حاكمًا عليه؛ فما ثبت في القرآن والسنة وجب الإيمان به، وإن خفيت حقيقته أو كيفيته.

9. قدرة الله مطلقة، والذي بدأ الخلق من العدم قادر على إعادته بعد الموت، بل إن الإعادة في إدراك البشر أيسر من الابتداء.

10. الله يعلم ما تأكله الأرض من أجساد الموتى، ولا يضيع من خلق الإنسان شيء عن علمه سبحانه.

11. التكذيب بالحق يؤدي إلى الاضطراب والحيرة؛ ولذلك وصف الله المشركين بأنهم ﴿فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾.

12. شأن الباطل التناقض وعدم الثبات، أما الحق فواضح ثابت متماسك، لا تضطرب حججه ولا تتناقض أصوله.

13. الإيمان باليوم الآخر يغيّر حياة المسلم؛ فينظر إلى الدنيا باعتبارها دار اختبار، ويستعد بالعمل الصالح للقاء الله.

14. الغاية العملية من السورة تعظيم القرآن، واليقين بالبعث، والثبات على الحق، وعدم الاغترار بالشبهات المتناقضة، والاستعداد للحساب والجزاء.

****

الفصل الثاني

آيات الله الكونية الدالة على قدرته

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: 6-11]

الفصل الثاني

آيات الله الكونية الدالة على قدرته

تحدثنا عن الآيات الأولى من السورة والتي تثبت أن القرآن كلام الله عز وجل وأنه وحي منزل من الله العزيز الحميد، وأن الله تعالى قادر على أن يحيي الموتى، وأن يبعثهم من قبورهم.

وكان الدليل الأول على أن الله قادر على أن يبعث الناس من قبورهم قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: 4] فالله تعالى علمه محيط بكل شيء يعلم كل ذرة تتحلل من كل إنسان في جوف الأرض.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ [ق: 6]

ثم ذكر الدليل الثاني في هذه الآيات وهو: أن الذي خلق هذا الخلق العظيم وهذا الكون الكبير لن يعجزه أن يعيد الإنسان مرة أخرى هذا الإنسان كم حجمه بالنسبة لهذا الكون؟ ولذلك قال جل وعلا: **{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** [غافر:57] وقال جل فى علاه: **{أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}** [يس:81]

فهذا استدلال عقلي يبصره كل عاقل أن الذي خلق هذا الكون الفسيح بعظمته وجلاله وإتقانه وشموخه لن يعجزه أن يعيدك أيها الإنسان مرة أخرى ويبعثك وتمثل حياً بين يديه جل وعلا.

والاستفهام هنا: (أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ) استفهام إنكاري؛ أي ما الذي منعهم من أن ينظروا إلى عظمة الله جل وعلا في خلق السماوات، والمشركون كانوا يؤمنون بأن الله هو الذي خلقهم وخلق كل ما في الكون ويقرون بهذا، قال تعالى :**{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}** [العنكبوت 61]لكنهم كانوا بعد اعترافهم بأن الله خالق كل شيء يتوجهون بالعبادة لآلهتهم ؛

فوحدوا الله توحيد الربوبية، وكفروا بالله في توحيد الألوهية؛ فأشركوا معه غيره في عباداتهم.

فلأنهم مقرّون بهذه العظمة في خلق السماوات والأرض قال: ما الذي منعهم أن ينظروا إلى هذه السماء وخلقها للاستدلال على قدرة الله تعالى على خلقهم وبعثهم: **(أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا)**

مفهوم السماء ووصف بنيانها

وكلمة السماء تستعمل في اللغة العربية على أنها كل ما علاك؛ وهذا الذي نراه في جهة العلو جهة السماء نحن لا نرى السماء لكن ما نراه هو الغلاف الجوي المحيط بالأرض ويطلق عليه السماء تجوّزا الدنيا وقد تسمى السماء الدنيا من الدنو لأنها أقرب سماء إلينا؛ قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ**﴾ [الملك: 5] وهذه السماء واحدة من سبع سماوات طباقاً خلقها الله.

والله جل في علاه أحكم وأتقن بنيانها فهي عظيمة جليلة ليس فيها فطور ولا تصدع: **{فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} [الملك:3]** وأيّ بناء بشري بعد مدة من الزمن طالت أم قصرت يتصدع، ويتشقق، ويحدث فيه فروج أي خلاء أو فراغ بين الحيطان وبعضها يكون بفعل الزمن. [1]

هذه السماء كم عمرها الآن؟ ملايين مليارات السنين الله أعلم، لكن لا شك أن عمرها كبير وأنها عتيقة، ومع هذا ما ترى فيها من فروج ولا خلل، ولا تصدع أو تشقق؛

---

[1] أرسل إليَّ أحد المشايخ قصةً، ومما نلحظه في وسائل التواصل الاجتماعي شغف بعض الناس بتناقل الغرائب والعجائب دون تثبّت أو تأمّل، ومفاد القصة أن أحد المشايخ سُئل: لماذا تتصدّع جدران المساجد، ولا تتصدّع جدران الكنائس؟ فأجاب على الفور بقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21] فقلت له: يا أخي، هذا استشهاد بالآية في غير موضعها؛ فالآية لا تفسّر تصدّع جدران المساجد، ولا يصحّ أن ننسب عيوب البناء إلى خشية الله؛ إن تصدّع جدران مسجد، وسلامة جدران كنيسة، إن وقع ذلك، يُبحث عن أسبابه في التصميم والتنفيذ وجودة المواد والصيانة؛ فقد يغشّ القائم على بناء المسجد في المواد أو يقصّر في تنفيذ العمل، فتظهر الشقوق، بينما يتقن القائم على بناء الكنيسة عمله، فيكون بناؤها أكثر متانة، وقد يحدث العكس؛ فالعبرة بإتقان البناء وأمانة القائمين عليه، ولا يجوز أن نتّخذ من الآية تبريرًا للغش أو التهاون، ومن المؤسف أن يُساء بناء بيت من بيوت الله بسبب تقصير أو خيانة للأمانة، ثم يُقدَّم ذلك للناس على أنه أثر من آثار الخشوع والخشية.

والله سبحانه وتعالى دعانا إلى أن نتأمل في صفحة الكون لإدراك عظمة الله وجلاله حتى نستدل بالصنعة على الصانع؛ فالذي أحكم البناء وأتقنه قادر على أن يخلق مثلهم وأن يعيدهم مرة أخرى.

ولذلك فإن أبلغ رد على الملحدين أن نقول لهم: هذا الكون العظيم لا يعقل أنه يدار هكذا بعشوائية بمحض المصادفة هذا الإتقان الكبير العظيم يدل على إله خلاق عظيم.

تفسير قوله تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) [الرعد:2] وقال تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) [لقمان :10]

أي بناء حتى يكون قويا متينا ونستطيع أن نؤسس فوقه عدة طوابق يحتاج إلى أعمدة قوية متينة صلبة فهل السماء لها أعمدة؟

أخبر سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين الكريمتين أن من حكمته أن خلق السمواتِ، ورفعها **{بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}، فما معنى الآيتين؟**

اختلف المفسرون على قولين:

أحدهما: أنها مرفوعة بغير عمد ترونها، ويكون معنى الآية :الله الذي رفع السماوات كما ترونها، بغير عمد، وذلك بجعل جملة (ترونها) حالا من السماوات ويعود الضمير إلى السماوات.

والثاني: أنها مرفوعة بعمد، ولكنا لا تُرَى؛ فمعنى الآية :الله الذي رفع السماوات- بغير عمد مرئية- وذلك بجعل جملة (ترونها) صفة لعمد، والضمير يعود إلى عمد.

ويميل علماء الفلك المعاصرون إلى التأويل الأول فيقولون :إن الأجرام السماوية كلها قد بناها الخالق سبحانه وتعالى وجعل كل جرم فيه بمثابة لبنة من بناء شامخ، ورفع هذه الأجرام كلها بعضها فوق بعض بقوى هي نوع القوة الطاردة المركزية، كما ربطها في نفس الوقت برباط الجاذبية العالية، والجاذبية تتعادل مع القوى الطاردة المركزية الناجمة عن الدوران في مسارات شبه دائرية أو قطاعات ناقصة، وهي بمثابة الأعمدة المقامة بالفعل.

يقول الدكتور زغلول النجار: -رحمه الله - تشير الدراسات الكونية إلى وجود قوى مستترة في اللبنات الأولية للمادة وفي كل من الذرات والجزيئات وفي كافة أجرام السماء، تحكم بناء الكون وتمسك بأطرافه إلى أن يشاء الله تعالى فيدمره، ويعيد خلق غيره من جديد.

ومن القوى التي تعرف عليها العلماء في كل من الأرض والسماء أربع صور يعتقد بأنها أوجه متعددة لقوة عظمى واحدة تسري في مختلف جنبات الكون لتربطه برباط وثيق وإلا انفرط عقده وهذه القوى هي:

1. **القوة النووية الشديدة.**
2. **القوة النووية الضعيفة.**
3. **القوة الكهربائية / المغناطيسية أو الكهرومغناطيسية.**
4. **قوة الجاذبية.**

وهذه القوى الأربع هي الدعائم الخفية التي يقوم عليها بناء السماوات والأرض وقد أدركها العلماء من خلال آثارها الظاهرة والخفية في كل أشياء الكون المدركة ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية أن هذه القوى الأربع لابد وأن تلتقي في شكل واحد للقوة يمثل وحدة البناء في هذا الكون، ويشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.[1]

يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم:

أنت تعيش على هذه الأرض التي هي إن بالغنا في القول سنقول: إنها كرأس دبوس في هذا الكون العظيم بأفلاكه ومجراته واتساعه مما لا يحيط به البشر علماً ...

هذه الأرض جزء من الكون لا يساوي عند الله جناح بعوضة؛ عندها تدرك أيها الإنسان عظمة الله تعالى وجلاله حينما قال معاتباً: **{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار: 6]** و**(ويقول الإنسان أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أولا يذكر**

---

[1] زغلول النجار، «من آيات الإعجاز العلمي: السماء»، ص 350

الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} [مريم:66،67] فالذي خلقك، وخلق هذا الكون بعظمته وجلاله واتساعه لن يعجزه إذا مات الخلق جميعاً أن يعيدهم بأمره جل وعلا مرة ثانية.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: 6]

النظر إلى السماء بسموها وصفائها وزرقتها من المشاهد التي تسبب انشراح الصدر، وقد يساهم في تحسين الحالة النفسية لمرضى الاكتئاب النظر إلى السماء؛ لأنك تخرج من الشعور بالضيق الذي أنت فيه إلى سعة الكون الفسيح.

فالسماء لونها زينة زيّنها الله للناظرين، وما جعل الله فيها من النجوم زينة، وما جعل الله فيها من القمر زينة وحركة الشمس في الشروق والغروب كثير من الناس يُسرون برؤية هذا المشهد الرباني الجميل، وهذه الصفحة المنظورة من الكون العظيم زينها الله للناظرين.

وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ :الفروج جمع فُرْجَة، والفرجة هي الخلاء بين الشيئين، أي لن ترى فيها تشقق ولا تصدع فرغم أن هذا الكون له ما له من السنين الممتدة الطويلة لكن الله عز وجل الذي أحكم وأتقن كل شيء خلقه لن تجد في خلقه أي تفاوت أو أي تصدع أو تشقق.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [ق: 7]

بعد أن ذكر الله تعالى السماء وبنيانها وعظمتها أشار إلى الأرض التي نعيش عليها، ونعمة الله تعالى في بسط الأرض، وتهيئتها للحياة فيها.

والعلماء قالوا إن هذه الآية فيها إعجاز علمي في أكثر من وجه، وأنا لست من الذين يغرمون بذكر الطرائف والعجائب والغرائب إنما أنا أتكلم عن حقائق علمية ثبتت واستقرت، لكنها كانت في زمن النبي ﷺ غير معلومة، ولم يكن متاحا للبشرية من وسائل العلم وأدوات العلم ما يحققون به معرفة هذه الأمور على وجه الضبط الذي نراه في عصرنا، لكنك تعجب لدقة اللفظ القرآني المعبر عن الحقائق العلمية التي لم يتوصل لها العلماء إلا في القرن الماضي أو عبر سنوات قريبة.

نزلت هذه الآيات تنزيل من حكيم حميد على قلب النبي الأمي سيدنا محمد وتلاها على أصحابه، ثم جاء العلم ليبين لنا هذه الحقائق الكونية.

قوله تعالى: (والأرض مددناها)

هذا اللفظ القرآني فيه دليل على أن الأرض كروية أو بالتعبير العلمي بيضاوية أي تشبه البيضة من الطرفين القطب الشمالي والجنوبي فهي كروية أو بيضاوية الشكل ومعنى "مددناها" أي أنك مهما مشيت فهي ممتدة أمامك فلو كانت مربعة الشكل أو مستطيلة لكان لها حافة أي تبدأ من هنا وتنتهي هنا، أو تبدأ من الشمال إلى الجنوب وتنتهي الأرض لكن الأرض حيثما سرت فهي ممتدة أمامك لأنها بيضاوية الشكل.

الرد على منكري كروية الأرض

على الرغم من أن كروية الأرض صارت من الحقائق العلمية الكونية إلا أن هناك بعض المتعالمين يخرجون بين الحين والآخر ويقولون: كذب إن الأرض كروية الدليل بالقرآن أن الأرض ليست كروية، وأنا لا أعجب من هذا إلا أنه مرض حب الشهرة وحب المخالفة، كهذا الذي تبول في بئر ماء زمزم فلما عاتبه الناس على ذلك قال: أردت أن أشتهر ولو باللعنات!!! لا حول ولا قوة إلا بالله.

الله سبحانه وتعالى جعل الأرض ممتدة فهذا دليل على كرويتها لأنك حيثما سرت ترى الأرض أمامك أيضاً عندنا الآية ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: 5] التكوير هو لف الشيء ودورانه ومنه قول العرب كورت العمامة أي لفها أو دور العمامة على رأسه، ومنه قول الحق تبارك وتعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} [التكوير :1] أي جمعت ولفت كما تلف العمامة؛ فهذه الآية إشارة إلى حركة دوران الأرض وإشارة إلى تعاقب الليل والنهار.

فنحن هنا في هذا الجزء من الكرة الأرضية عندنا نهار وفي الطرف الثاني عندهم ليل ثم تنعكس المسألة وهذا معنى تكوير الليل على النهار والعكس.

وقوله تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [فاطر:13] يولج أي يدخل بحيث لا تجد فارق زمني بين الليل والنهار؛ فالليل يدخل يعقبه النهار والنهار يدخل يعقبه الليل، كما قال ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62] خلفة: أي يخلف الليل النهار ويخلف النهار الليل.

أيضاً نبي الله نوح لما ذكر قومه بنعم الله عليهم قال ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا**﴾ [نوح: 19] بساطاً من البسط والمد وهو معنى الآية التي معنا: **(والأرض مددناها)** فبسط الله الأرض ومدها وجعل عمارتها في أمانة الإنسان وتكليفه.

الذين يخرجون بهذه الأصوات النشاز يقولون إن رب العالمين قال: ﴿**وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾ [الغاشية: 20] فالأرض مسطحة وليست بيضاوية ولا كروية زعموا!!

وهذا جهل لأن الكرة الأرضية ليست مدينة صغيرة ولا قرية صغيرة الكرة الأرضية كبيرة ضخمة والعلماء يقدرون مساحة سطح الكرة الأرضية بـ 510 مليون كيلومتر مربع فأنت تراها أمامك كأنها مسطحة ممتدة لكن في الشكل العام هي بيضاوية الشكل.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [ق: 7]

ثلث هذه الأرض يابسة 29% يابسة أي أرض والثلثين 71% ماء، فهي أشبه بباخرة أو سفينة كبيرة عائمة على ماء؛ ما الذي يثبتها؟ **الجبال**

فجعل الله تعالى الجبال رواسي، وكلمة رواسي بمعنى أنها تجعل الأرض راسية ثابتة ليست مهتزة ولا مضطربة كما في الآية الأخرى **{أَن تَمِيدَ بِكُمْ}** [النحل:15] تميد أي تضطرب.

وقد أدركت تفسير هذه الآية في عام 2001 حينما سافرت بالباخرة لأداء العمرة، من خليج السويس إلى ميناء جدة في رحلة تستغرق ثلاثة أيام تقريباً، فكنا طوال الرحلة ونحن في الباخرة نشعر بحركة السفينة تضطرب هكذا يمينا ويسارا، لدرجة أنني بعدها بأيام كنت إذا أردت النوم على السرير أشعر كأن السرير يهتز بنفس الحركة؛ فلولا أن الله جعل الجبال رواسي لاضطربت الأرض كحركة الباخرة في الماء؛ فالله تعالى جعل الأرض رواسي تثبت الأرض حتى لا تضطرب ولا تميد.

والدكتور زغلول النجار رحمه الله عليه أشار إلى معنى دقيق عن الجبال في قوله تعالى: ﴿**وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾ [النبأ: 7] قال: إن الوتد يعرفه العربي إذا أراد تثبيت الخيمة فلو قلنا إن طوله 50 سم فإن ثلثيه في باطن الأرض والثلث هو الذي يكون فوق

الأرض، وهكذا حجم الجبل الذي تراه بعينك أضعافه في باطن الأرض فجاء التشبيه القرآني البليغ والجبال أوتاداً.

الجبال خاضعة ساجدة لله:

وأخبرنا جل في علاه أن هذه الجبال تسجد لله عز وجل قال سبحانه وتعالى:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: 18]

وأخبرنا جل وعلا أن هذا القرآن العظيم لو أنزل على جبل لتصدع من خشية الله في سورة الحشر فقال: **﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]**

وأخبرنا سبحانه وتعالى أن من آياته يوم القيامة أن هذه الجبال ستنهار انهياراً تاماً **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: 105-107]** ولاحظوا قدرة الله كيف يجعل الجبال الصلبة القاسية الشامخة كثيباً مهيلاً أي: رمالاً مهلهلة متفرقة غير متماسكة **كما في قوله تعالى:**
﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ [المزمل: 14]

فالله سبحانه وتعالى أنعم على عباده بنعمة الأرض الممتدة وجعل فيها المعايش التي يرزقون من خلالها وجعل الجبال مثبتة لهذه الأرض حتى لا تضطرب بأهلها، وجعلها الله عز وجل أيضاً سبباً لتنزل المطر، قال العلماء لأن السحب تصطدم بقمم الجبال فينتج عن ذلك نزول المطر ولذلك قال بعدها:

قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: 7]

وبقدرة الله عز وجل ينتج عن هذا المطر أن ينبت النبات والثمار إلى آخره.

وكلمة زوج هنا فسرت بتفسيرين:

الأول: الزوج بمعنى الذكر والأنثى وهذا من الحقائق العلمية أن النبات فيه ذكر وأنثى تماماً كالإنسان كما في قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [يس: 36] فكما أن من البشر ذكوراً وإناثاً كذلك الزوجية موجودة في النبات.

القول الثاني: الزوجية هنا ليست زوجية النوع ذكر وأنثى إنما هي زوجية الأصناف فهذا أبيض اللون وهذا أخضر وهذا أحمر على حسب ما نوع الله تعالى من الألوان والأطعمة، وهذا حلو وهذا حامض فنوع الله تعالى الأصناف كقول الله تعالى في سورة الواقعة **{وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}** [الواقعة:7] وهم :أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والسابقين المقربين.

الشاهد هنا أن الله سبحانه وتعالى بين أن من الآيات أنه بقدرته أنزل هذا المطر من السماء فأنبت به كل زوج بهيج.

وكلمة (بهيج) من البهجة وهي السعادة فجعل الله تعالى منظر الخضرة والثمار والفاكهة سبباً لسرور الإنسان بذلك، وهذا أمر معروف عند أطباء النفس أنهم دائماً ينصحون من يعاني من الاكتئاب، ومن يعاني من الضغوط النفسية أن يخرج إلى مكان واسع فيه فاكهة وفيه الخضرة؛ فهذا مما تسر به العين، وتهدأ به النفس سبحان الله!!فالله تعالى وصف شكل النبات والفواكه والثمار بأنها فيها بهجة **(من كل زوج بهيج)**

هذه الآيات الكونية التي نراها في صفحة الكون المنظور ذكرها الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 8]

التبصرة بمعنى دوام النظر إلى عظمة الله وجلاله بأن تتفكر في عظمة الله في خلق السموات والأرض والجبال وإنزال المطر وإنبات النبات هذا فيه تبصرة أي تتبصر وتنتفع بهذا الأمر في الاستدلال على عظمة الله وجلاله والتزود بالإيمان كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [آل عمران: 190-191]

وذكرى أي تذكر لمن نسي، ومن نسي، وألف هذه النعم فاعتاد رؤية الشمس وهي تشرق في الصباح، واعتاد مشهد نزول المطر، فلدوام هذه النعم ينسى الإنسان شكرها، وربما يغفل عن عظمة خالقها؛ فالله تعالى يقول: رددوا وكرروا هذه الآيات وتبصروها، فإذا نسيتم فتذكروا.

التبصرة والذكرى لمن؟ لكل عبد منيب: من أناب أي رجع إلى الله العبد الذي يرجع الأمور إلى ربه ينسب النعمة إلى خالقها، فهو الذي يشكر الله على ما أنعم عليه به، وهو منيب رجاع إلى الله تعالى ليس رجوع المكره ولا المضطر إنما رجوع المحب فهو يرجع الأمر إلى الله في خلقه ويثني على الله بما خلق ويحمد الله على ما وهب، وأنعم فإذا أساء أو عصى فإنه يرجع إلى الله تائباً محباً لله وحريصاً على مرضاته جل في علاه.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق: 9]

لما ذكر الله -تعالى- السماء وما فيها من عظمة، والجبال وما فيها من إرساء للأرض؛ حتى لا تضطرب بأهلها ذكر الأرض، والله سبحانه وتعالى جعل الصلة بين السماء والأرض بأن جعل المطر ينزل من السماء الذي هو سبب الماء فجعله رب العالمين رحمة وبركة على أهل الأرض.

والماء من أعظم نعم الله تعالى على عباده في هذه الدنيا:

- الماء آية من آيات الله الدالّة على عظمته وقدرته، وعلى رحمته بخلقه وحكمته في تدبير شؤونهم.
- ومع أن العلماء عرفوا التركيب الكيميائي للماء، وأمكن تحضيره بتفاعلات كيميائية، فإن ذلك لا يغني عن مصادره الطبيعية، ولا يوفّر وسيلة عملية لإنتاجه بالكميات اللازمة لحياة البشر.
- الماء أساس الحياة؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30].
- يُنزل الله الماء من السماء، فيروي به الإنسان والحيوان، وينبت به الزرع، ويحيي به الأرض بعد جفافها.

- وقد سمّى الله المطر غيثًا؛ لما فيه من إغاثة الخلق وتفريج كربهم، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: 28].

- ومن آثار رحمته سبحانه إحياء الأرض بالماء؛ قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: 50].

- وقد تحملنا الألفة بهذه النعمة وسهولة الحصول عليها على الغفلة عن قدرها؛ فنفتح صنبور الماء فيتدفّق، دون أن نتأمّل عظيم حاجتنا إليه، وما تستوجبه هذه النعمة من الشكر والمحافظة عليها.

- وجعل الله الماء سببًا لاستقرار الإنسان وازدهار العمران؛ فقد نشأت حضارات كثيرة على ضفاف الأنهار وبالقرب من مصادر المياه.

- فحيث يتوافر الماء تتيسّر حياة الإنسان، وتزدهر الزراعة، وتنمو المراعي، وتُربّى الماشية، وتتهيّأ أسباب الاستقرار والنماء.

هدي النبي ﷺ عند المطر

من السنة أن يعرّض المسلم بعض أعضائه للمطر النازل: **قال أنس: أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر، قال: فحسر -أي كشف- رسول الله ﷺ ثوبه، حتى أصابه من المطر، فقلنا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟! قال: "لأنه حديث عهد بربه تعالى" رواه مسلم**

الدعاء عند نزول المطر:

أما عن الدعاء عند نزول المطر، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى المطر قال: (صيبا نافعا) رواه البخاري

اللهم صيبا أي اسقنا صيبا، والصيب المطر الذي يصوب أي ينزل ويقع.

وقوله (نافعا) تتميم في غاية الحسن لأن صيبا مظنة للضرر والفساد، فدعا الله أن يكون نافعا.

ومن الواجب على العبد في هذا المقام أن يعرف نعمة الله عليه، وينسب الفضل إليه، فهو سبحانه مولي النعم ومسديها، بيده العطاء والمنع، والخفض والرفع، لا رب سواه ولا إله غيره.

وقد ثبت في الصحيحين عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل -أي على إثر مطر- فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: "هل تدرون ماذا قال ربكم؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب" رواه البخاري ومسلم

(على إثر السماء): (إثر) بكسر الهمزة وسكون الثاء، وهو ما يعقب الشيء، والسماء هنا المراد بها المطر، سمي بالسماء؛ لكونه ينزل من جهة السماء، والمعنى: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح عقب مطرٍ نزل في الليل.

(مُطِرْنا بنَوْء كذا وكذا): النوء: هو سقوط نجم في المغرب وطلوع آخر في المشرق، وكان العرب في الجاهلية يعتقدون أنه سبب في نزول المطر، وقد نهى الرسول ﷺ عن هذه المقالة؛ فإن اعتقد أن النجم فاعل حقيقي فهو كفر، وإن قصد أنه مجرد وقت وعلامة فهو مكروه أو خلاف الأولى.

فالقائل عند نزول المطر: مطرنا بفضل الله ورحمته، قد نسب النعمة لمعطيها، وأضاف المنة لموليها، واعتقد أن نزول هذا الفضل والخير والرحمة إنما هو محض نعمة الله وآثار رحمته سبحانه.

والأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر، وإنما سبب نزول المطر حاجة العباد وافتقارهم إلى ربهم وسؤالهم إياه، واستغفارهم وتوبتهم إليه، ودعاؤهم إياه بلسان الحال ولسان المقال، فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته، بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم، ولا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق، ويضيفها إليه، ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره.

وكان ﷺ إذا اشتد المطر قال: (اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب، وبطون الأودية، ومنابت الشجر) رواه البخاري
وفي حديث سهل بن سعد مرفوعا: أن النبي ﷺ قال: (ثنتان ما تردان: الدعاء عند النداء، وتحت المطر) رواه الحاكم في المستدرك وصححه الألباني.

والدعاء عند النداء: أي وقت الأذان، أو بعده، وتحت المطر :أي عند نزول المطر.

هل الدعاء عند نزول الثلج مستجاب؟

الثلج له حكم المطر لأنه ماء تجمد، والإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: **(ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها)** [سورة النحل 80] قال: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [النور: 43] فخاطبهم بالبرد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيرا عندهم، وسكت عن ذكر الثلج، لأنه لم يكن في بلادهم، وهو مثله في الصفة والمنفعة.

وقد ذكرهما النبي ﷺ معا في التطهير فقال: (اللهم اغسلني بماء وثلج وبرد)

وقال ابن عباس: الثلج شيء أبيض ينزل من السماء وما رأيته قط.

الماء وعلاج الأمراض:

والله سبحانه وتعالى جعل في الماء شفاء للعديد من الأمراض وهذا ما أثبت علميا الآن، فهو يساعد على الهضم والتخلص من الفضلات، ودعم صحة المفاصل، وإنتاج اللعاب الذي يساعد في توازن المعادن بالجسم، والمساعدة في إنتاج الهرمونات، وتوصيل الأكسجين إلى جميع أنحاء الجسم، وتنظيم درجة حرارة الجسم.

وقلة شرب الماء يؤدي إلى آلام المفاصل، والتأثير على وظائف الدماغ، وقد يؤدي عدم أخذ كمية كافية من الماء إلى انخفاض القدرة على التفكير بطريقة سليمة ومنطقية، وأيضا مشكلات البشرة لجفاف الجلد، وتكون التجاعيد المبكرة، والإمساك، ومشكلات في الكلى والمسالك البولية، وانخفاض ضغط الدم.

ولذلك علينا أن نحمد الله تعالى على هذه النعمة، فعندما يشرب أحدنا ويرتوي من الماء يحمد الله.

يقول النبي ﷺ: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها). أخرجه الإمام مسلم

وكان النبي يقول: (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين). فينسب الفضل لله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: {فأنبتنا به جنات وحب الحصيد} [سورة ق: 9].

جنات جمع جنة وتطلق عند العرب كلمة جنة على المكان الذي يمتلئ بالأشجار العالية وسميت جنة لأن من يدخلها يستتر.

الفعل جن: أي اختفى واستتر، ومنه قوله تعالى: **(فلما جن عليه الليل)** أي أقبل بظلامه فستر كل شيء، ومنه الجن لأنهم مستترون لا نراهم، ومنه الجنين لأنه مستتر في بطن أمه، فالجن والجنين والجنة من الاستتار والاختفاء.

فلضخامة الأشجار وعلوها تسمى جنة فأنبت الله تعالى بهذا الماء جنات.

وحب الحصيد: الحب معروف ويشمل: القمح والأرز والشعير وهذه الحبوب التي يقتات بها الإنسان.

والأشجار تؤتي ثمارها كل عام لأن الشجرة ثابتة وتثمر مرة في العام، أما الحب فإنك تحصده ثم تأكل منه جزءا وتزرع الجزء الآخر في العام التالي وتستمر هكذا دورة الحياة يثمر النبات القمح أو الأرز أو سائر الحبوب فتأكل منه وتزرع منه وتدوم الحياة.

قوله تعالى: {والنخل باسقات لها طلع نضيد} [سورة ق: 10].

النخل ذكره الله على اسمه كشجرة رغم أنها داخلة في جنس جنات لأن جنات اسم يطلق على الأشجار؛ لكن لماذا خص الله النخلة بالذكر ولماذا ذكرها دون ذكر الثمرة؟

خصها الله بالذكر لكثرة منافعها؛ فالنخلة من أولها لآخرها كلها منافع؛ أي أن القرآن لما تكلم عن ثمرة شجرة الكرم العنب فذكر الثمرة فقط وهي العنب لأن الانتفاع يكون من الثمرة وهي العنب فقط.

أما النخلة لم يذكر ثمرتها وهي البلح أو التمر والرطب إنما ذكرها باسمها لأن الجذع فيه فائدة؛ الليف يؤخذ من الجذوع فتحشى به أفخم المراتب والمخدات والصالونات والكراسي إلى آخره؛ والسعف له فوائد عديدة والثمرة لها فوائد كثيرة.

كل شيء في النخلة فيه منفعة وفيه فائدة فلا ترى شيئا في النخلة ليس له فائدة، فخصها الله بالذكر لبركتها وخيرها، ومنافعها الكثيرة، وأن منفعة النخلة ليست في الثمرة فقط، إنما في كل ما في النخلة فيه منفعة للبشرية.

ومعنى {والنخل باسقات} باسقة أي عالية شديدة العلو أو عظيمة الارتفاع حتى أنك لو رأيت صور الرياح العواصف تجد أن الرياح ربما تقلع الشجر من جذورها لشدتها أما النخل فغالبا يتمايل يمينا وشمالا ولا تنخلع، والله عز وجل قال: **{ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء}** [سورة إبراهيم: 24]. هذه هي النخلة.

وضرب النبي المثل بالمؤمن بالنخلة وقال: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟) فكان الجواب هو أنها النخلة.

فالنخلة شجرة عظيمة البركة عظيمة الفائدة؛ خلقها الله وجعل فيها منافع وبركة دلالة على عظمة الله جل وعلا في الخلق.

(لها طلع نضيد) الطلع هو أول الثمرة الباكورة **ونضيد** أي متراص في صورة هندسية أي كأن مهندسًا رتبه بهذا النظام، فتجد هذا التراص الهندسي بشكل منظم ومرتب ليدل على عظمة الله الخالق البديع جل جلاله فتبارك الله أحسن الخالقين.

قال تعالى: {رزقا للعباد} [سورة ق: 11]

جعل الله هذه الجنات وحب الحصيد والنخل وما فيه من منافع رزقا للعباد وهذا الرزق لجميع العباد المؤمن والكافر وسعهم الله بعطائه.

قال تعالى: {وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج} [سورة ق: 11].

إذن الآيات هنا ذكرت إنزال الماء {ونزلنا من السماء ماء مباركا} ثم إنبات الجنات وحب الحصيد للاستدلال على أمرين:

الأمر الأول: عظمة الله وقدرته؛ فنزول الماء آية من آيات الله عز وجل الدالة على عظمته، وهو أمر مسلّم به عند مشركي العرب الذين كانوا ينكرون وحدانية الله والبعث.

ودورة الماء في الكون وتجدد الحياة في الكون عندما تسقط أشعة الشمس على المسطحات المائية في الكرة الأرضية ثم تتصاعد وتتكثف على شكل بخار ثم بعد ذلك تحركها الرياح فتتحول إلى سحاب ثم ينزل المطر وهكذا دورة متجددة في هذه الحياة نرى من خلالها عظمة الله تعالى، ويرينا الله كيف أن لهذا الكون إلها عظيما قادرا جل جلاله.

الأمر الثاني: آية إنزال المطر من السماء وإنبات الأرض بعد موتها دال على قدرة الله تعالى على إعادة الخلق وأن الذي أحيا الأرض بماء السماء سيحيي هذه الأجساد البالية المفتتة ويبعثها من قبورها.

أي كذلك ستبعثون من قبوركم وتخرجون وتمثلون بين يدي الله تعالى فيجازيكم على أعمالكم.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا شكر نعمه علينا وأن يديم علينا النعم وأن يجعلنا من عباده الشاكرين الحامدين اللهم آمين يا رب العالمين.

الآثار الإيمانية والتربوية للآيات الكريمة

1. عبادة التفكر في خلق الله عبادة قلبية عظيمة؛ لأنه يزيد معرفة العبد بربه، ويحيي في قلبه التعظيم والمحبة والخشية.

2. إن الاعتياد على رؤية النعم قد يحجب الإنسان عن عظمتها؛ فهو يرى الشمس كل يوم، ويشرب الماء، ويمشي على الأرض، وينظر إلى السماء، حتى تصبح هذه الآيات العظيمة في نظره أمورًا عادية؛ فجاء القرآن ليوقظه من غفلته، وليعيد إليه الدهشة الإيمانية أمام هذا الكون البديع.

3. الاستدلال بالخلق العظيم على قدرة الله على البعث، فإذا كان الله قد خلق هذا الكون العظيم بما فيه من السماوات والأجرام والأرض والجبال، فكيف يُستبعد عليه أن يعيد خلق الإنسان بعد موته؟

4. حين يتأمل الإنسان اتساع الكون، ودقة نظامه، يدرك ضعف نفسه وصغر حجمه، ويزول من قلبه الكبر والغرور؛ فكيف يتكبر مخلوق يعيش فوق جزء صغير من هذا الكون، ولا يملك أن يمنع عن نفسه المرض أو الشيخوخة أو الموت؟

5. الانتفاع بجمال الكون في تجديد النفس؛ فالخروج إلى مكان هادئ، أو الجلوس بين الأشجار، أو تأمل السماء، يجدد النفس ويخفف عنها الضغوط، إذا اقترن بالذكر والتفكر.

6. إدراك نعمة الأرض والاستقرار عليها، وهذه النعمة تقتضي ألا يفسد الإنسان الأرض التي أصلحها الله وهيأها له؛ فالأرض ليست ملكًا لجيل واحد يفعل فيها ما يشاء، وإنما هي أمانة ينتفع بها ويحفظها لمن يأتي بعده.

7. الإنابة إلى الله مفتاح الانتفاع بالآيات، فالمشكلة ليست دائمًا في نقص الأدلة، وإنما قد تكون في القلب الذي يستقبلها. فقد يرى شخص السماء فيزداد إيمانًا، ويراها آخر فلا تتجاوز نظرته حدود الظاهرة المادية.

8. أن يستشعر المسلم نعمة الماء عند كل استعمال، فلا يشربه بقلب غافل، بل يحمد الله الذي سقاه، وإذا فتح الصنبور فوجد الماء متاحًا، تذكر أن أقوامًا يقطعون مسافات طويلة للحصول عليه، وأن بلادًا تصاب بالجفاف، فيعرف قدر النعمة قبل فقدها.

9. الرزق من الله وفضله واسع لجميع العباد، وهذا يربي القلب على التعلق بالرزاق، لا بالأسباب وحدها؛ ولا يعني التوكل على الله ترك العمل؛ فالمؤمن يسعى ويجتهد، لكنه لا يتعلق قلبه بالسبب، ولا يظن أن ذكاءه وحده هو الذي رزقه، بل يقول: هذا من فضل ربي.

10. إحياء الأرض بعد موتها يوقظ الأمل في القلوب؛ فكما يحيي الله الأرض بعد موتها، يحيي القلوب بعد قسوتها، ويهدي العاصي بعد طول غفلته، ويصلح الأحوال بعد فسادها. فلا ينبغي للإنسان أن ييأس من نفسه أو من غيره، ما دام باب التوبة مفتوحًا والهداية بيد الله.

المعنى الإجمالي للآيات:

1. أن التأمل في آيات الله الكونية من أعظم الأدلة على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته.

2. أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق الإنسان، فمن قدر على الأكبر قدر على إعادة الأصغر وبعثه بعد الموت.

3. أن إحكام بناء السماء وخلوها من الخلل والتصدع دليل على كمال قدرة الله وحكمته.

4. أن الكون لم يخلق عبثًا أو مصادفة، بل هو قائم على نظام دقيق يدل على خالقه سبحانه.

5. أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام لحكم عظيمة، منها تعليم الخلق الإتقان، والتدرج، والأخذ بالأسباب، والنظام.

6. أن حقيقة الأيام الستة من الغيب الذي لا يعلم مقداره إلا الله، فلا يجوز الجزم بما لم يرد به دليل.

7. أن النظر في السنن الكونية يزيد الإيمان، ويحث على البحث العلمي واكتشاف قوانين الكون التي أودعها الله فيه.

8. أن السماء مرفوعة بقدرة الله، سواء قيل بلا عمد مطلقًا أو بعمد غير مرئية، وكل ذلك شاهد على عظمة الخالق.

9. أن الأرض مهيأة للحياة بفضل الله، وقد بسطها ومدها وجعلها صالحة لاستقرار الإنسان ومعاشه.

10. أن الجبال من نعم الله العظيمة، جعلها رواسي للأرض وآيةً من آيات قدرته.

11. أن جميع المخلوقات، ومنها الجبال، خاضعة لله مسبحةٌ وساجدةٌ له على الوجه الذي يعلمه سبحانه.

12. أن المطر نعمة مباركة، به تحيا الأرض، وتقوم الحضارات، وتستمر حياة الإنسان والحيوان والنبات.

13. أن من السنة الدعاء عند نزول المطر، والتعرض له، وسؤال الله أن يجعله نافعًا.

14. أن النبات والثمار والنخيل والحبوب من أعظم دلائل رحمة الله وسعة رزقه لعباده.

15. أن تنوع النباتات والألوان والثمار شاهد على إبداع الله وحكمته في الخلق.

16. أن إحياء الأرض بعد موتها بالمطر دليل ظاهر على إمكان بعث الأجساد بعد فنائها.

17. أن الآيات الكونية إنما ينتفع بها أصحاب القلوب المنيبة، الذين يتفكرون في خلق الله ويزدادون إيمانًا.

18. أن دوام النعم قد يورث الغفلة، ولذلك يحتاج المؤمن إلى التذكر الدائم وشكر الله على نعمه الظاهرة والباطنة.

19. أن الواجب على المسلم أن يقرن التفكر في آيات الكون بشكر المنعم، وتسبيحه، وحمده، والرجوع إليه تائبًا منيبًا.

****

الفصل الثالث

الوعيد الإلهي للمكذبين

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: 12-14]

الفصل الثالث

الوعيد الإلهي للمكذبين

لما كانت عقول البشر قاصرة وكان البشر لا يستطيعون وحدهم لا يستطيعون أن يهتدوا إلى الحق، وأن يعرفوا مراد الله من خلقه، ولا يقدرون على التفريق بين الحسن والقبيح، والخير والشر، هنا كانت الحاجة ماسة إلى من يعرفهم بربّهم جل وعلا، وتلكم هي مهمة الأنبياء والرسل -عليهم السلام-؛ الذين أرسلهم الله لهداية البشرية فيبلغون الناس ما يوحى إليهم من ربهم، فآمن من آمن وكفر من كفر.

ولما ذكر الله تعالى عناد الكفار مع رسولنا ﷺ، وتكذيبهم واضطرابهم في إطلاق الاتهامات لتشويه الحق الذي جاء به وتنفير الناس عنه أراد الله سبحانه وتعالى أن يقول لنبينا إن هذا هو منهج وديدن أهل الباطل مع الرسل، وأن رسل الله الذين أرسلوا من قبلك تعرضوا لما تعرضت له من التكذيب، وأنهم قاموا بالبلاغ المبين كما أمرهم الله تعالى، وأن الأمم المكذبة أهلكهم الله تعالى بسبب تكذيبهم لرسلهم وكفرهم بآيات الله كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34]

وهنا يذكر الله تعالى أسماء بعض الأقوام الذين كذبوا رسلهم فأهلكهم الله:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: 12-14]

1- قوم نوح:

نبي الله نوح – عليه السلام- هو أبو البشرية الثاني، وهو أول الرسل بعد آدم - عليه السلام-، وقد اصطفاه الله للنبوة، وهداه للحق، وكلفه بالرسالة، وأثنى عليه بما هو أهله، وهو أحد أولي العزم الخمسة من الرسل، وأثنى الله عليه في القرآن فقال:

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3] وقد فصل القرآن الكريم قصة نوح -عليه السلام- في أكثر من سورة، وخصها بسورة كاملة؛ بيانا لأهميتها.

أول ظهور لعبادة الأصنام في الأرض:

طال الزمن بعد آدم، واستمر الناس على الحق عشرة قرون **كما قال ابن عباس – رضي الله عنهما-: " كان بين نوح، وآدم، عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين} [البقرة: 213]**

وبعدها حدثت أمور أدت إلى أن يعبد الناس الأصنام المعروفة: (ودا، وسواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا)، وهذه أسماء رجال صالحين بين آدم ونوح - عليهما السلام-، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا أوحى الشيطان إلى من بعدهم أن يصوروا أولئك الصالحين أو ينصبوا لهم أنصابًا تذكّرهم بهم، ثم طال بهم الأمد فعُبدت تلك الصور.

دعوة نوح لقومه:

أرسل الله نوحا إلى قومه، فدعاهم إلى التوحيد، ولكن القوم رفضوا الدعوة، واتهموه بالضلال، والجنون، والسفاهة، واتهموا أتباعه - عليه السلام - بأنهم الأراذل والسفلة، -بزعمهم- واستمروا في الإعراض عنه، وعلى الرغم من هذا استمر نوح -عليه السلام –في دعوتهم، إلا أنهم تمسكوا بضلالهم، واستمروا في عبادة أصنامهم، وطلبوا منه أن يتركهم: **﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: 32]** ومكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما لم يهدأ، ولم يفتر، حتى أوحى الله إليه: **﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: 36]**

إهلاك قومه:

وبدأ نوح - عليه السلام- والمؤمنون معه في صنع السفينة، فلما أتمها حمل فيها الذين آمنوا معه، ومن سائر المخلوقات زوجين اثنين، **قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ**

آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ **[هود: 40]** وأهلك الله قومه بالطوفان، كما في قوله تعالى:﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: 25]

2- أصحاب الرس:

ورد ذكر "أصحاب الرس" في القرآن في موضعين:

الأول بسورة الفرقان، قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ **[الفرقان: 38]**

والثاني: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ **[ق: 12]**

وهناك عدة أقوال للمفسرين فيمن هم أصحاب الرس؟ وما مكانهم؟

وخلاصة القول: أن كلمة الرس في اللغة: معناها البئر المطوية؛ البئر تحفر ثم يقام حولها البنيان فإذا كانت بدون بنيان (سور للبئر) تسمى رسا، ويقال: بئر رس إذا كانت البئر أشبه بالحفرة، ورسّ الشيء: يعني أخفاه ودفنه.

ولا ندري على وجه القطع أين كان أصحاب الرس؟ هل باليمن أم بشمال الجزيرة أم في غيرهما؟

والذي نفهمه من سياق الآيات أن أصحاب الرس قوم كذبوا نبيهم، وبعض الأقوال المشهورة في التفسير أنهم قتلوا نبيهم وألقوا به في بئر مطوية وهذا سبب تسميتهم بأصحاب الرس لكن ليس هناك شيء صحيح نجزم به عن رسول الله ﷺ.

لماذا لم يفصل القرآن الحديث عن أصحاب الرس واكتفى بالإشارة إليهم؟

القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ ؛ فكتب التاريخ تعتني بالتفاصيل وأدق الدقائق والمكان والزمان والأشخاص؛ أما القرآن الكريم فهو كتاب يركز على المعاني الإيمانية والدروس والعبر، ويبرزها تثبيتا لقلوب المؤمنين، ولم يفصل الله تعالى الحديث عن أصحاب الرس، وكذلك بعض الأنبياء مثل "اليسع" أو "إلياس" أو غيرهم من أنبياء الله للدلالة على صدق النبي ﷺ، فما كان لنبينا أن يعلم عن أنبياء بني إسرائيل شيئا، وهناك أمور تاريخية ذكرت في القرآن ما كان النبي يدري عنها

شيئا، كما قال الله تعالى في سورة هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: 49]

فالنبي ﷺ نزل عليه فيما نزل إشارات من العلم الذي عند أهل الكتاب، هذه الإشارات لا يعلمها إلا أهل الكتاب؛ فمن الذي أخبر النبي ﷺ بهذا؟ أخبره الله عز وجل.

فهذا فيه دلالة إعجازية بأن ذكر النبي لشيء لم يكن يعلمه هو ولا قومه دلالة على صدقه، وأن هذا القرآن كلام الله عز وجل.

إذا فأصحاب الرس قوم أرسل فيهم رسول فكذبوه فأهلكهم الله عز وجل.

3- قوم عاد:

بعث الله نبيه هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه عاد، وكانوا يسكنون البيوت ذوات الأعمدة الضخمة، ويبنون القصور العالية والحصون المرتفعة، ويتفاخرون ببنائها، وأعطى الله أهل هذه القبيلة بنية جسدية تختلف عن سائر البشر، وكانوا ذوي قوة وبسطة في الأجسام، إذا حاربوا قومًا أو قاتلوهم هزموهم، وبطشوا بهم بطشا شديدًا، ولذلك قال لهم نبيهم: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: 130]

وبرغم هذه النعم والخيرات الكثيرة التي أعطاهم الله إياها، لم يشكروا الله -تعالى- عليها، بل أشركوا معه غيره؛ فعبدوا الأصنام، ولم يكتفوا بهذا، بل وارتكبوا المعاصي والآثام، وأفسدوا في الأرض، فأرسل الله لهم هودًا- عليه السلام - ليهديهم إلى الطريق المستقيم وينهاهم عن ضلالهم، وأوصاهم بالتوبة والرجوع إلى الله عما هم فيه من عصيان، لكنهم استكبروا وأصروا على شركهم.

وقوع العذاب بقوم عاد:

انقطع عنهم المطر مدة طويلة، ثم جاءهم سحاب عظيم، فلما رأوه استبشروا به، وفرحوا، وظنوا أنه السحاب سيمطرهم، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: 24] ظنوا أن السحب ستأتي لهم بالخير، ولكنها كانت تحمل لهم العذاب والفناء، ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ

شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ **[الأحقاف: 25]** فجاءتهم ريح شديدة استمرت سبع ليال وثمانية أيام متتابعة دون انقطاع، تدمر كل شيء أمامها حتى أهلكتهم، **قال تعالى:** ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ **[الحاقة: 6-8]**

4- فرعون:

فرعون المذكور في القرآن ليس اسماً لشخصٍ بعينه، بل هو لقب لحكام مصر القديمة، كما يُقال كسرى أو قيصر لحكام فارس والروم، والقرآن لم يذكر اسمه الحقيقي وإنما ركّز على صفته وطغيانه وقصته مع نبي الله موسى عليه السلام.

وقد اختلف المؤرخون والباحثون في تعيين شخصه، وأشهر الأقوال إنه رمسيس الثاني .

لماذا ذكر قوم عاد وثمود وعند ذكر مصر يذكر فرعون وليس مصر؟

القرآن إذا ذكر عادًا وثمود ذكرهما باسم القوم لأن العبرة المقصودة هي هلاك الأمة بكاملها بعد قيام الحجة عليها وتمرّدها الجماعي على نبيّها، فكان اسم القوم هو العنوان الدال على الذنب والعقوبة معًا، **قال تعالى:**﴿وَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ **(فصلت: 15)** وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ **(فصلت: 17)** أمّا مصر فإن مركز الطغيان الحقيقي كان هو الحاكم المتألّه، لذلك لم يُنسب الطغيان إلى البلد، وإنما إلى الحاكم المتألّه، الذي استخف قومه؛ كما قال تعالى:﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ **[الزخرف: 54-55]**

لماذا ذكره بلقبه وليس اسمه؟

ذكر فرعون بلقبه دون اسمه الشخصي لأن نموذج "فرعون" متكرر، بل أصبح هذا اللقب وصفا لكل من يتألّه ويتجبر ويستعبد الناس، ولهذا قال العلماء: كل زمان

فيه فرعون، وإن اختلف الاسم واللباس، أما عاد وثمود فقد انقرضوا تمامًا، فذُكروا بأسمائهم ليكونوا أطلالًا تاريخية للعظة.

وفي الحديث يقول النبي ﷺ: (إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِرْعَوْنًا، وَفِرْعَوْنُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو جَهْلٍ) أخرجه الإمام أحمد وحسّنه الألباني.

ومعنى الحديث أن لفظ فرعون وصفٌ للطغيانِ مع الاستكبار، والتألّه، ومحاربة الحق، وصدّ الناس عن الإيمان، فكل أمة يُبتلى فيها بطاغيةٍ جامعٍ لهذه الصفات يكون فرعونها، وإن اختلف الزمان والمكان والاسم، ولهذا خصّ النبي ﷺ أبا جهل بهذا الوصف، لأنه بلغ في العناد، والصدّ عن سبيل الله، ومحاربة الوحي، والتكبّر على الحق، مبلغًا شابه به فرعون موسى، مع الفارق الجوهري أن فرعون موسى ادّعى الألوهية صراحة، وأبو جهل أظهرها كِبرًا وسلوكًا وإن لم ينطق بها لفظًا. فجمع فرعون بين علو الاستكبار، وسفك الدماء، فصار رمزاً قرآنيّاً متجدداً لكل نظام مستبد يجمع بين الطغيان السياسي والفساد الأخلاقي والاضطهاد الإنساني.

ما هي جرائم فرعون؟

بلغ فرعون الغاية في الكبر والغرور ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4]؛ فكفر بنبي الله موسى ووصفه بأنه ساحر يتآمر لقلب نظام الحكم ، ولم يكتفِ برفض توحيد الله، بل نصب نفسه إلهاً ورباً على الناس بغير حق، بادعاء الربوبية المطلقة: **﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]** ثم بالغ في الكفر بإنكار وجود إله آخر غيره: **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38]**

ومن جرائمه أنه كان يقتل الذكور من أطفال بني إسرائيل ويدع الإناث للخدمة والاستعباد خوفاً من زوال ملكه، **كما قال تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾** [القصص: 4] وكان يذل بني إسرائيل ويستخدمهم في أعمال السخرة والخدمة.

كيف أهلكه الله؟

أمر الله -تبارك وتعالى- نبييه - موسى وهارون - عليهما السلام –أن يخرجا ببني إسرائيل من مصر، فخرجوا على حين غفلة من فرعون وقومه، فلما علم فرعون بخروجهم، خرج بجنوده في طلبهم بغيا وعدوا، فلما أدركهم قال بنو إسرائيل: يا موسى كيف الخلاص؟ والبحر أمامنا والعدو وراءنا؟

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: 61-66] فسلك موسى ببنى إسرائيل طريقا في البحر يبسا ووصل فرعون وجنوده إلى الساحل وكان طريق بني إسرائيل في البحر لا يزال باقيا، فسار فيه فرعون بجنوده فلما اكتملوا جميعًا فيه وهم أولهم بالخروج، انطبق البحر عليهم وأغرقوا أجمعين.

5- إخوان لوط:

أرسل الله نبيه لوطا عليه السلام إلى قومه الذين كانوا يأتون الفاحشة ويقطعون الطريق على الناس، بقرية تسمى سدوم، قال تعالى: **﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: 80-81]**

وكانت أخلاق أهل تلك البلدة سيئة، فكانوا لا يستحيون من المنكر، ويقطعون الطريق، وفوق هذا كانوا يفعلون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين؛ فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وأخذ لوط - عليه السلام- يدعو أهل سدوم إلى الإيمان وترك الفاحشة، لكنهم لم يستجيبوا له، واستمروا في ضلالهم وفجورهم.

وكانت قصة إهلاكهم كما ذكر القرآن حينما أرسل الله الملائكة على صورة بشرية لنبي الله لوط - عليه السلام، فلما رآهم أُصيب بالغمّ، لما سيترتب على مجيئهم من شرور قومه، قال تعالى: **﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ**

﴿مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: 78-80]

وأصروا على الدخول، ولم يجد لوط من بينهم رجلاً رشيدا يبين لهم ما هم فيه من الخطأ، وأحس لوط بضعفه أمام هؤلاء القوم، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: 80] ، وعندئذ كشف الضيوف عن حقيقتهم، وأخبروا لوطًا بأنهم ليسوا بشرًا وإنما هم ملائكة من السماء جاءوا لتعذيب هؤلاء القوم الفاسقين، وما هي إلا لحظات حتى اقتحم قوم لوط البيت على الملائكة، فأشار أحد الملائكة بيده ناحيتهم ففقد القوم أبصارهم، وراحوا يتخبطون بين الجدران، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: 37] وطلبت الملائكة من لوط أن يرحل مع أهله عندما يقبل الليل، لأن العذاب سينزل على قومه في الصباح، ونصحوه ألا يلتفت هو ولا أحد من أهله خلفهم عندما ينزل العذاب حتى لا يصيبهم، قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: 65-66] وفي الليل خرج لوط وابنتاه وتركوا القرية، وأرسل الله العذاب الشديد على قرية سدوم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 82-83]

وبقيت قرية سدوم عظة وعبرة لكل الأجيال القادمة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: 137-138]

لماذا قال في هذا الموضع "وإخوان لوط" وباقي القرآن "وقوم لوط"؟

قرأت تفسيرات كثيرة في هذا الموضوع أقربها للصواب -حسب اجتهادي- أن هذا من باب التنويع في اللفظ بدلا من قول: قوم نوح، وقوم لوط، وقوم تبع، فتتكرر كلمة قوم ثلاث مرات؛ فقال: **(وإخوان لوط)** من باب التنويع، والقرآن ينوع في اللفظ حتى لا يكون هناك ملل بتكرار نفس الكلام.

إذن وإخوان لوط هنا المقصود قوم لوط الذين كانوا يعملون فاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين.[1]

6- أصحاب الأيكة:

أرسل الله نبيه شعيبا عليه السلام إلى قومه مَدْيَنَ، وتطلق مدين على القبيلة، وعلى المدينة، **قال تعالى:** ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85] وكان قومه كفاراً يقطعون السبيل، ويخيفون المارة، وكانوا يبخسون المكيال والميزان ويطففون، فبعث الله نبيه شعيبًا - عليه السلام - إليهم، فدعاهم إلى التوحيد، وترك القبائح، وعدم ظلم الناس.

قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85]

هل مدين هم أصحاب الأيكة؟

الراجح لدي أن شعيبا عليه السلام أرسل إلى قومه الذين كانوا ينقصون المكيال والميزان وهم "أهل مدين"، وكان أصحاب الأيكة يسكنون البادية [2]، على هذا

---

[1] والإخوة تأتي في عدة معان في اللغة العربية: أولها: الأخ هو الأخ الشقيق نسبا {وأخي هارون هو أفصح مني لسانا} [القصص: 34] وثانيها: تأتي بمعنى الأخ شبها يعني إذا أردت أن تشبه أحدا بأحد تقول هذا أخ لفلان وتقصد الشبه كما في قوله تعالى حكاية عن بني إسرائيل لما قالوا لمريم: {يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا} [سورة مريم: 28] فيا أخت هارون هنا معناها في الصلاح والتقوى وليس المقصود أنها أخته نسبا، وثالثها: أخوة القومية أي أنهم أبناء وطن أو أرض واحدة فيقال إنه أخوهم من هذه الجهة {وإلى عاد أخاهم هودا} {وإلى ثمود أخاهم صالحا}. فلوط كان أخا لقومه رغم أنه ليس منهم لأن لوطا هو ابن الأخ الشقيق لسيدنا إبراهيم، فهاجر إلى الشام، وتزوج من هؤلاء القوم قرى سدوم وصاهرهم فبزواجه أو بمصاهرته وإقامته بينهم صار أخا لهم، وهذا كقول الله تعالى في خطابه لأهل مكة عن النبي ﷺ: {وما صاحبكم بمجنون} [سورة التكوير: 22]. فالنبي ليس بصاحب بمعنى الصداقة المعروفة وطول الصحبة، إنما المقصود أنكم تعرفونه ولد بينكم وعاش بينكم، وتعرفون أخلاقه وصفاته وما كان ليترك الكذب على الناس ثم يكذب على الله عز وجل فقال: (وما صاحبكم بمجنون).

[2] البادية: يقصد بها المناطق الصحراوية أو الرعوية المفتوحة التي يقطنها البدو، ويطلق على سكانها: أهل البادية.

القول، ولذلك في سورة الشعراء ذكر الله الأنبياء بالسورة بإضافة كلمة: "أخوهم" **فقال:** ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: 106] و ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: 124] و ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أخوهم صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: 142] إلا نبي الله شعيب قال: **{كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون}** [سورة الشعراء: 176-177] فلم يقل "أخوهم"، لأنه لم يكن يعيش بينهم، ولم يكن واحدا منهم؛ إنما كان من أهل مدين، فشعيب أرسل إلى مكانين:

- المكان الأول قومه أهل مدين.
- الثاني: أصحاب الأيكة الذين كانوا في أطراف مدينته يعبدون شجرة عظيمة **(الأيكة)** ويقدسونها من دون الله.

إهلاك قوم شعيب:

وكعادة الأمم الظالمة، كذب القوم نبيهم واستهزأوا به؛ فتوعدهم بوقوع العذاب، **لكنهم أصروا على كفرهم وفسادهم** فاستحقوا العقاب والعذاب.

وقد جمع الله لهم صنوفاً من العذاب، لأنهم جمعوا صنوفاً كثيرة من الأفعال القبيحة، وعلى القول بأنهما جماعتان: أهل مدين وأصحاب الأيكة ، فقد كان لأهل مدين الرجفة والصيحة ، فعذبوا بالرجفة التي زلزلت الأرض من تحتهم وأزهقتهم، قال تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾ **[الأعراف: 91]** ثم عذبوا بالصيحة وهي صيحة عظيمة أخمدت الأصوات وأزهقت أرواحهم، قال تعالى:

﴿**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٩٤ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ۝٩٥**﴾ **[هود: 94-95]**

أما أصحاب الأيكة فقد وقع بهم عذاب الظلة، والظلة سحابة بَدَت لهم أرادوا أن يستظلوا بها، فكانت عذابا لهم، كما قال تعالى: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ **[الشعراء: 189]**

7- قوم تبع

تبع هذا ملك صالح من ملوك حمير وهذه كانت دولة عظيمة في جنوب الجزيرة العربية في اليمن، وتبع لقب وليس اسما كما أن فرعون لقب حكام مصر وكسرى لقب لملك فارس، وقيصر للروم وهكذا.

وفي التفسير عن ابن كثير أن اسمه أسعد أبو كريب والنبي ﷺ قال: (لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم). رواه الإمام أحمد وصححه الألباني

ومعنى هذا أنه كان رجلا صالحا وليس نبيا ومعنى ذلك كلم قومه ودعاهم إلى عبادة الله وحده فأبوا عليه وكذبوه فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر.

لكن الله قال بعدها "كل كذب الرسل"؟ ونحن قلنا إنه ليس رسول؟

ورد في الروايات التاريخية أنه زار المدينة، وكان وثنيا وقتها والتقى ببعض أحبار اليهود ودعوه إلى الدين الحق وتوحيد الله، وأخبروه أن هذه الأرض هي مهاجر نبي آخر الزمان، وقالوا في التاريخ أنه أول من كسا الكعبة لما علم من حرمتها فهو كان على شريعة موسى عليه السلام، فلما رجع إلى قومه – وهذا كان قبل ولادة النبي بسبعمائة عام كذبوه؛ فكان تكذيبهم له تكذيبا لنبي الله موسى، إذا فـ(تبع) رجل صالح دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ [ق: 14]

هنا يشير الحق تبارك وتعالى إلى أن تكذيب رسول واحد هو تكذيب لجميع الرسل.

كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 105] ولم يرسل فيهم إلا نوح وهنا قال: **"كل كذب الرسل** "ولم يرسل في أي قوم من هؤلاء إلا رسول واحد قال العلماء: وهذا معناه أن تكذيب رسول واحد هو تكذيب لجميع الرسل.

والمسلم مأمور بأن يؤمن بجميع الرسل والأنبياء، ونوقرهم ونجلهم ونصلي ونسلم عليهم ونعلم أنهم أرسلوا من قبل الله عز وجل، وأن خاتمهم وإمامهم هو نبينا المصطفى الكريم صلوات ربه وتسليماته عليه؛ قال تعالى: {**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله**} [سورة البقرة: 285] فلا نقول نحن نؤمن بمحمد ونكفر بموسى أو نؤمن بمحمد

وموسى ونكفر بعيسى نحن نؤمن بجميع الأنبياء وأن كلا منهم أرسل من عند الله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 150-152]

وحدة الدين وتنوع الشرائع

بعض الناس يظن أن كل رسول جاء بدين مستقل؛ كلا إنما هو دين واحد دين الإسلام، **قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾** [آل عمران: 19] فجميع الرسل جاؤوا بالتوحيد قائلين: **(اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)** فاتفقوا في أصول الدين لكن جاء الاختلاف في الشرائع، أي تفاصيل الشريعة، فمن الممكن أن نرى اختلافا فيها، وذلك باختلاف الزمان والمكان؛ وهذه بعض الأمثلة:

1- **قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183] فدلّ ذلك على أن الصيام كان مشروعًا في الأمم السابقة.**

2- **قول عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: 31]**

3- جواز تعلم السحر في زمن سليمان-عليه السلام- كما ورد على لسان الملكين هاروت وماروت: **﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾** [البقرة: 102] أما في شريعتنا فتعلم السحر محرم، بل من كبائر الذنوب **وجعله النبي ﷺ من السبع الموبقات، فقال: اجتنبوا السبع الموبقات، وذكر منها: "الشرك بالله والسحر" متفق عليه.**

4- **نبي الله سليمان -عليه السلام- كانت الجن يعملون له التماثيل ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾** [سبأ: 13] أما عندنا فيحرم صناعة التماثيل؛ قال **النبي ﷺ :إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون" متفق عليه.**

وهذا معنى قول النبي ﷺ في الحديث: **(الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد.)** الأخوة لعلات يعني إخوة لهم أب واحد وعدة أمهات، كمثل رجل متزوج من أكثر من امرأة له من الأولى أولاد، ومن الثانية، ومن الثالثة، فهؤلاء اختلفت أمهاتهم لكن الأب واحد فالنبي يقول: **(الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد) رواه الإمام البخاري ومسلم**

قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: 14]

"فحق وعيد"يعني استحقوا ما توعدهم الله على ألسنة رسله بالعذاب وأصلها "فحق وعيدي" لكن حذفت الياء مراعاة للفاصلة؛ فالكلمات من أول السورة: **المجيد مريج بهيج** فجاءت كلمة وعيد على نفس الفاصلة.

وكلمة الفاصلة عند علماء التفسير تساوي كلمة القافية في الشعر لكن كره العلماء أن يُسوّى القرآن بالشعر فقالوا: الفاصلة.

الآثار الإيمانية والتربوية لآيات الوعيد الإلهي للمكذبين

1- الآيات فيها تسلية للنبي ﷺ؛ فالتكذيب الذي واجهه من قومه لم يكن أمرًا خاصًّا به، وإنما هو طريق تعرض له الأنبياء من قبله، ومع ذلك صبروا واستمروا في تبليغ رسالات ربهم.

2- أن الداعية لا يقيس صحة دعوته بسرعة استجابة الناس، ولا يجعل كثرة الرافضين دليلًا على بطلان ما يدعو إليه، فقد يمضي وقت طويل قبل أن تظهر ثمرة الدعوة، وقد لا يرى الداعية في حياته إلا استجابة قليلة، كما وقع لنوح عليه السلام مع طول مدة دعوته.

3- الصبر لا يعني الاستسلام ولا التوقف عن العمل؛ فقد مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى الله، فالصابر لا يترك واجبه لأن الطريق طال، ولا يتخلى عن دعوته لأن الناس لم يستجيبوا له سريعًا.

4- كما تعلمنا قصة نوح أن النجاح في الدعوة ليس بالأرقام وعدد من آمن به؛ فقد يبذل الداعية جهده ولا يؤمن به إلا قليل، ومع ذلك يكون عند الله ناجحا فالميزان هو الإخلاص في تبليغ الدعوة، لا عدد المؤيدين ولا ضجيج وسائل التواصل.

5- ذكر القرآن أصحاب الرس وقوم تبع بإيجاز، لأن المقصود الأعظم هو العبرة: أنهم كذبوا رسل الله فاستحقوا العقوبة، وهذا يعلمنا أن الانتفاع بالتاريخ لا يكون بمجرد حفظ الأسماء والتواريخ، وإنما بفهم السنن التي تتكرر في حياة الأمم.

6- القوة المادية لا تمنع عذاب الله؛ فقد كان قوم عاد أصحاب قوة وبطش وبناء، ومع ذلك لم تحمهم قوتهم حين جاء أمر الله، وكانت لفرعون دولة وجنود وسلطان، فلم يغنِ عنه ملكه شيئًا عندما أدركه الغرق.

7- ألا يظن أحد أن امتلاك الباطل لأسباب القوة دليل على رضا الله عنه أو دوام سلطانه؛ فقد يمهل الله الظالم، لكنه لا يهمله، وإذا أخذه لم تفده جنوده ولا حصونه.

8- كما يتعلم الداعية ألا يستعجل نزول العقوبة بالناس، بل يرجو هدايتهم، ويدعو لهم، ويقيم عليهم الحجة بالحكمة؛ فالرسل لم يبدأوا أقوامهم بالدعاء عليهم، بل صبروا ودعوهم، ولم ينزل العذاب إلا بعد تمام الحجة واستمرار العناد.

9- دعوة الرسل واحدة في أصلها، وهي عبادة الله وحده؛ فمن كذب رسولًا فقد رد أصل الرسالة التي جاء بها جميع الرسل، ومن الآثار الإيمانية لهذه الآية أن المسلم يؤمن بجميع أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، ولا يفرق بينهم في أصل التصديق. فيحبهم ويوقرهم، ولا يطعن في أحد منهم.

المعنى الإجمالي للآيات:

1. حاجة البشر إلى الوحي والرسل؛ لأن العقول لا تستقل بمعرفة تفاصيل مراد الله وأحكام الحلال والحرام وحقائق الغيب.

2. في قصص الأمم السابقة تثبيت للنبي ﷺ وللدعاة من بعده، وتعليم لهم الصبر أمام الاستهزاء والاتهام والإعراض.

3. اشتراك الأمم المكذبة في أصل واحد، وهو رفض توحيد الله وتكذيب رسله، وإن اختلفت صور انحرافهم وذنوبهم.

4. كثرة الأتباع ليست دليلًا على صحة المنهج؛ فقد آمن مع نوح عليه السلام عدد قليل، وكان الحق معه رغم كثرة مخالفيه.

5. القوة المادية لا تمنع عذاب الله؛ فعاد كانوا أهل قوة وبطش وعمران، ومع ذلك أهلكهم الله لما استكبروا وكذبوا رسولهم.

6. الطغيان يبدأ بالاستعلاء وينتهي بالإفساد؛ كما فعل فرعون حين استكبر، وفرّق الناس، واستضعف طائفة منهم، وسفك الدماء.

7. من وسائل الطغاة تشويه دعوة المصلحين؛ فقد وصف فرعون موسى عليه السلام بالسحر، واتهمه بتهديد ملكه وسلطانه.

8. الفواحش إذا أُعلنت ودافع عنها المجتمع كانت سببًا للعقوبة العامة؛ كما وقع لقوم لوط حين أصروا على الفاحشة ورفضوا نصح نبيهم.

9. القرآن كتاب هداية وعبرة، لا كتاب تفاصيل تاريخية؛ ولذلك قد يذكر بعض الأمم، كأصحاب الرس، دون بيان أسمائهم وأماكنهم وتفاصيل حياتهم.

10. تكذيب رسول واحد تكذيب لأصل رسالة جميع الرسل؛ لأنهم جميعًا دعوا إلى توحيد الله وتصديق وحيه.

11. الإيمان بجميع الأنبياء والرسل أصل من أصول الإيمان؛ فلا يصح الإيمان ببعضهم والكفر ببعض.

12. وعد الله ووعيده حق لا يتخلفان؛ وإمهال الظالمين ليس إهمالًا؛ فقد يمهل الله المكذبين مدة طويلة، لكنه إذا أخذهم بعد قيام الحجة لم يفلتوا من عقوبته.

13. النجاة في اتباع الرسل والثبات على الحق، والهلاك في الإعراض عن الوحي والإصرار على المعصية بعد ظهور الحجة.

14. قصص القرآن تحذير للأحياء وليست مجرد أخبار عن الماضين؛ فمن سار على طريق المكذبين خيف عليه من جنس عاقبتهم.

15. أعظم مقصد للآيات دعوة الإنسان إلى المبادرة بالتوبة قبل أن يتحقق فيه وعيد الله كما تحقق في الأمم السابقة.

الفصل الرابع

إحاطة علم الله بالإنسان

قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 15-18]

الفصل الرابع

إحاطة علم الله بالإنسان

قال تعالى: {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ} [ق: 15]

الإعياء: أي التعب، والتعب يأتي بسبب العمل الكثير وبذل الجهد؛ فالإنسان في نهاية يوم عمل شاق يصيبه الإعياء، ويحتاج إلى الراحة بعد بذله للجهد، فالذي أصابه الإعياء لا يستطيع أن يقوم بعمل آخر ويحتاج إلى الراحة.

الله سبحانه وتعالى يقول لنا: إنه لما خلق الخلق لم يصبه إعياء؛ فقد خلق السماوات والأرض وما بينهما، وخلق الإنسان، وهذه الكائنات كلها سبحانه جل شأنه ولم يصبه إعياء بخلقهن، لأنه سبحانه وتعالى منزه عن كل ما يصيب بني الإنسان.

والاستفهام في قوله: **{أَفَعَيِينَا}** للإنكار والنفي؛ أي: ما عجزنا وما لحقنا إعياء بالخلق الأول، فكيف يشك هؤلاء في قدرتنا على الخلق الجديد؟

قال تعالى: {بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} [ق: 15]

اللبس: هو الخلط للأشياء المختلفة الحقائق بحيث يعسر أو يتعذر معه تمييز بعضها عن بعض؛ فينتج عن ذلك الحيرة والشك والتردد.

والمعنى: إنهم متحيرون لقياسهم مسألة البعث وفق القوانين البشرية ويتساءلون: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: 47-48] وكأنهم يقولون: أَنُبعث بعد أن نصير ترابًا وعظامًا؟ بل أيبعث آباؤنا الأولون الذين ماتوا منذ أزمان بعيدة؟

فهم في حيرة وتردد، منهم مصدق ومنهم مكذب، وكان من المشركين من ينكر البعث ومنهم من كان يتشكك أو يتردد.

فمعنى الآية: إذا كان هؤلاء المشركون معترفون بالخلق الأول غير منكرين قدرتنا عليه، وإذا كان الله عز وجل لم يصبه إعياء ولا تعب حينما خلق الخلق الأول من العدم؛ أفسيعييه سبحانه أن يعيده مرة أخرى؟

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: 16]

الله تبارك وتعالى هوالذي خلقنا، ويعلم خفايا الصدور، فهو يعلم ما في داخل كل إنسان مما لا يعرفه غيره عنه، وعلمه علم إحاطة لا يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان؛ فهو بكل شيء عليم.

وهذا معنى (عليم بذات الصدور) والصدر هو محل المشاعر كالحب والكراهية والنفور والإقبال، فما بداخلك حتى من المشاعر يعلمه الله.

فإذا كانت مشاعر الحب والبغض والكره يعلمها الله عز وجل فلا يخفى عليه شيء أيعجزه أن يوجدك مرة أخرى أيها الإنسان؟

قال تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: 16]

والوسوسة في أصل اللغة هي الصوت الخفي، وهي عبارة عن حديث خفي وإلقاء دقيق يقع في النفس أو الصدر، يدعو إلى معنى أو فعل، وقد تكون من النفس وقد تكون من الشيطان.

ما الفرق بين وسوسة النفس ووسوسة الشيطان؟

النفس والشيطان كلاهما يدعو الإنسان إلى الشر، لكن مصدر كل منهما وطريقته يختلفان، وقد يجتمعان في الوقت نفسه حتى يصعب التفريق بينهما يقينًا.

وسوسة النفس:

هي الأفكار والرغبات التي تنشأ من داخل الإنسان بسبب شهواته وعاداته وميوله ومخاوفه وتجربته السابقة.

ومن علاماتها:

- أن تتعلق بشيء تحبه النفس أو اعتادت عليه؛ كالمال أو الشهوة أو الانتقام أو حب المدح.
- أن تلح على معصية معينة تناسب ضعف الإنسان؛ فالبخيل توسوس له نفسه بالبخل، والغضوب بالانتقام.

- أن تستمر الرغبة حتى عند غياب بعض المؤثرات الخارجية؛ لأنها نابعة من هوى متأصل أو عادة مكتسبة.
- أن تزيّن الخطأ بالتبريرات، مثل: "أنا مظلوم"، أو "هذه مرة واحدة"، أو "سأتوب لاحقًا" فالنفس قد **تشتهي المعصية، ثم تسوّلها وتزيّنها** حتى يقدم الإنسان عليها.

وسوسة الشيطان

هي إلقاء الشيطان الأفكار والخواطر التي تدعو إلى الكفر أو المعصية أو ترك الطاعة أو اليأس أو الشك، **قال تعالى: {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}** [الناس: 4-5].

ومن علاماتها:

- أنه ينتقل من باب إلى باب؛ فإن لم يستطع إيقاع الإنسان في معصية حاول إشغاله بمعصية أخرى أو تعطيله عن الطاعة.

كما قال رسول الله ﷺ:(**إنَّ الشيطانَ قد أَيِسَ أن يُعبَدَ بأرضِكم هذه، ولكنَّه قد رَضِيَ منكم بما تُحقِّرون)** أي رضي بما يحتقره الناس من الذنوب والصغائر.

- أنه يوسوس أحيانًا بما تنفر منه النفس أصلًا، كالخواطر القبيحة في العقيدة أو ذات الله، مع كراهية الإنسان لها.
- أنه يثير العجلة والخوف واليأس والقنوط والحزن وسوء الظن بالله.
- أنه يحاول حمل الإنسان على ترك العمل الصالح؛ إما بالكسل، أو الرياء، أو الغلو، أو الوسواس، وإذا لم يستطع صرفك إلى المعصية زهدك في الطاعة وقلل من شأنها.
- أنه يضعف ويخنس عند ذكر الله والاستعاذة به، **قال تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ}** [الأعراف: 200] فذكر الله يضعفه ويجعله يخنس، ويذهب وسوسته.

العلاقة بين النفس والشيطان

الشيطان لا يجبر الإنسان على المعصية، وإنما يدعوه ويزيّن له، وقد يستغل ما في النفس من شهوة أو غضب أو حسد، فالنفس تميل إلى أمر، والشيطان يقوّي هذا الميل ويبرره ويذكّر الإنسان به.

فمثلًا: قد تغضب النفس بسبب إساءة وقعت عليها، ثم يأتي الشيطان فيقول: لا تسامحه، وانتقم منه، وإن عفوت فأنت ضعيف.

ولهذا فالشيطان والنفس قد يتعاونان، ولا يمكن في كل خاطر أن نجزم: هذا من النفس وحدها أو من الشيطان وحده.

وذكر بعض أهل العلم: أن **النفس قد تلح على شهوة معينة تريدها، أما الشيطان فمقصوده وقوع الإنسان في أي شر؛ فإن عجز عن باب نقله إلى باب آخر.**

ولذلك العلماء قالوا إن وسوسة النفس أشد من وسوسة الشيطان لماذا؟

لأن وسوسة النفس تلازمك، وميولها وعاداتها تصاحب الإنسان، أما الشيطان فتقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فيذهب، وتقرأ آية الكرسي وتتعوذ بالمعوذات فيفر؛ فالاستعاذة سبب عظيم لدفع الشيطان، لكن الوسوسة الشيطانية قد تتكرر، ولذلك فالمؤمن مأمور بتجديد المجاهدة والذكر؛ أما نفسك فعلاجها التزكية.

تزكية النفس

التزكية في اللغة مصدر زكى الشيء يزكيه، ولها معنيان:

المعنى الأول: التطهير، يقال زكيت هذا الثوب أي طهرته.

والمعنى الثاني: هو الزيادة، يقال زكى المال يزكو إذا نما ومنه الزكاة لأنها تزكية للمال وزيادة له.

وعلى أساس المعنى اللغوي جاء المعنى الاصطلاحي لتزكية النفوس

فتزكية النفس شاملة لأمرين:

أ – تطهيرها من الأدران والأوساخ.

ب – تنميتها بإكسابها الأوصاف الحميدة

وعلى هذا المعنى جاءت الآيات القرآنية بالأمر بتزكية النفس وتهذيبها، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7-10]

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وطهرها من الرذائل والأخلاق الدنيئة، **(وقد خاب من دساها)** التدسيس هو الإخفاء أي دسسها وأخملها ووضع منها بخذلانه إيّاها عن الهدى، حتى ركب المعاصي، وترك طاعة الله عز وجل.

فحقيقة التزكية هي الاستجابة الكاملة لأمر الله ورسوله، والتخلص من اتباع الشيطان، وهوى النفس، وكلما تخلص العبد من رق الشيطان، والنفس كان أزكى نفسا، وأنقى دينا وأطوع لربه.

من أعظم ثمرات العبادات: تزكية النفس

- **الصلاة تزكية: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45]**
- **والزكاة تزكية: قال سبحانه وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 103]**
- **والصيام تزكية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]، وقال رسول الله ﷺ: (إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن شاتمه أحد أو قاتله فليقل إني أمرؤ صائم) متفق عليه**

- **والحج تزكية: قال الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 197]**

أحذرك نفسك التي بين جنبيك:

سألني أحد الشباب عن قول أبي بكر الصديق لعمر رضي الله عنهما أحذرك نفسك التي بين جنبيك، فقال: كيف يحذره من نفسه التي هي ذاته؟ أليس هذا تناقضاً؟

فأجبته: ليس في العبارة تناقض؛ لأن كلمة **النفس** في اللغة والشرع تُستعمل بأكثر من معنى، فقول أبي بكر رضي الله عنه لعمر :**إن أول ما أحذّرك نفسك التي بين جنبيك**؛ المقصود منه: أحذّرك **أهواء نفسك وشهواتها ودوافعها التي قد تحملك على الخطأ**، لا أنه يحذره من ذاته كلها أو يطلب منه أن ينفصل عن نفسه.

والإنسان ليس مجرد رغبة واحدة، بل فيه: عقل... وإيمان وتقوى... وشهوات وغرائز؛ عقل يميّز بين الخير والشر وإرادة تختار، وإيمان وتقوى لله عز وجل، وشهوات وغرائز قد تدعوه إلى المخالفة.

فيمكن للإنسان بإيمانه وعقله أن يراقب رغباته ويمنعها، كما يقول أحدنا :**قاومت نفسي، ومنعت نفسي، وحاسبت نفسي**، ولا يفهم أحد من هذا أن هناك شخصين منفصلين، وإنما المقصود أن جانب الإرادة الواعية يقاوم جانب الهوى والشهوة.

كما قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: 40-41] فالآية نسبت إلى الإنسان أنه **ينهى نفسه**، ولو كان ذلك تناقضًا لما جاء به القرآن. والمعنى: يمنع نفسه الأمارة ورغباتها المحرمة، **وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ} [المائدة: 105].**

أي الزموا إصلاحها وحفظها، فالإنسان مأمور بأن يكون مراقبا لنفسه.

مثال يقرب المعنى: المريض قد يشتهي طعامًا يضره، ويعلم بعقله أنه يجب أن يمتنع عنه، فنقول :**غلب نفسه ومنعها من الطعام**؛ فالذي اشتهى والذي امتنع

شخص واحد، لكن داخل هذا الشخص دوافع مختلفة: شهوة تدعوه، وعقل وإرادة يمنعانه.

لماذا خص النفس بالتحذير؟ لأن العدو الخارجي غالبًا يكون ظاهرًا، أما النفس فقد تزيّن للإنسان الخطأ وتجعله يظن أنه محق؛ فقد يظلم ويسمي ذلك حزمًا، أو يغضب لنفسه ويظن أنه يغضب للحق، أو يحب المدح ويظن أن قصده خدمة الدين.

وكان الحبيب ﷺ في خطبته يقول:"إِنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ ونعوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ومَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ" [أخرجه مسلم وأبو داوود] فكان يتعوذ بالله من شر نفسه أي يستعيذ بالله أن تدفعه نوازع نفسه وغرائزه وشهواته التي جبل عليها إلى معصية الله ومخالفة أمره.

أحوال النفس في القرآن الكريم:

النفس في اصطلاح القرآن هي ذات الإنسان وباطنه الذي تصدر عنه الإرادة والمشاعر والرغبات والاختيارات، وقد وصف القرآن النفس بعدة أوصاف بحسب حالها وقوة إيمانها واستجابتها للحق، وليس المقصود أن داخل الإنسان عدة نفوس منفصلة، وإنما هي نفس واحدة تتقلب بين أحوال مختلفة، فتقوى فيها دوافع الشر أحيانًا، ويقوى فيها الندم والمحاسبة أحيانًا، وقد تبلغ مرتبة الطمأنينة والاستقامة.

لو قرأنا آيات القرآن الكريم سنجد فيها الحديث عن ثلاثة أحوال وصفات للنفس البشرية:

أولًا: النفس الأمارة بالسوء

النفس الأمارة بالسوء هي النفس التي غلبت عليها الشهوات والأهواء، فصارت كثيرة الأمر لصاحبها بما يخالف أمر الله. وصيغة "أمّارة" من صيغ المبالغة، فتدل على كثرة الأمر بالسوء وتكراره.

ومن صفاتها أنها تطلب اللذة العاجلة ولو ترتب عليها ضرر آجل، وتكره مجاهدة النفس، وتميل إلى الكسل عن الطاعة، وتدفع إلى الغضب والحسد والكبر والشهوة والانتقام وحب الظهور.

قال الله تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} [يوسف: 53] وقوله تعالى: {إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي} يدل على أن الإنسان لا ينجو من شر نفسه بقوته وحدها، بل يحتاج إلى رحمة الله وإعانته، مع الأخذ بأسباب التزكية والمجاهدة والتوبة.

ولا يعني وجود داعي المعصية في النفس أن الإنسان آثم بمجرد الخاطر؛ وإنما يكون الحساب على ما استقر في القلب وعزم عليه الإنسان أو نطق به أو عمله، أما الخواطر العارضة التي يكرهها ويدافعها فلا يؤاخذ بها.

كما ينسب للنفس الأمارة بالسوء **التسويل** أي: التزيين والتسهيل؛ وذلك بأن تُظهر النفس الفعل القبيح لصاحبه في صورة حسنة أو مقبولة، وتخفف في نظره خطورته وعاقبته حتى يجرؤ على فعله.

ومن صور تسويل النفس أن تقول للإنسان: هذه معصية بسيطة، أو سأتوب بعد ذلك، أو الجميع يفعل هذا، أو إن الظروف أجبرتني، أو إن نيتي طيبة، أو إنني أستحق أن أفعل ذلك، فالنفس المسوِّلة لا تأمر الإنسان بالمعصية أمرًا صريحًا فقط، وإنما تستخدم التبرير والخداع وتغيير الأسماء؛ فتسمّي البخل حرصًا، والغيبة نصيحة، والانتقام استردادًا للحق، والرياء دعوةً إلى الخير.

قال الله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا} [يوسف: 18] وقول الله تعالى عن السامري: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: 96]

ثانيًا: النفس اللوامة

النفس اللوامة هي النفس التي تحاسب صاحبها وتلومه.

فهي تلومه إذا أذنب: لماذا عصيت الله؟ وتلومه إذا قصّر في الطاعة: لماذا لم تُحسن العمل؟ وقد تلومه أيضًا على فوات خير كان يستطيع القيام به.

واللوم المحمود هو الذي يقود إلى التوبة والإصلاح، فلا يكتفي الإنسان بالشعور بالذنب، بل يندم ويستغفر ويترك المعصية ويعزم على عدم الرجوع إليها ويصحح ما يمكن تصحيحه.

أما اللوم المذموم فهو الذي يتحول إلى قنوط واحتقار للنفس ويأس من رحمة الله، أو إلى وسواس متكرر لا ينتج عنه إصلاح. فالمؤمن يلوم نفسه ليقومها، لا ليهلكها، ويعترف بخطئه مع حسن ظنه برحمة الله.

قال الله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة: 1-2].

ووجود النفس اللوامة علامة على حياة القلب؛ لأن من اعتاد المعصية ولم يعد يشعر بالندم أو الخوف قد يكون قلبه في خطر أشد من قلب من يذنب ثم يتألم ويتوب.

ثالثا: النفس المطمئنة:

النفس المطمئنة هي النفس التي سكنت إلى الإيمان بالله، واطمأنت إلى وعده، ورضيت بحكمه، واستقرت على طاعته. وهي لا تخلو بالضرورة من الضعف أو الخواطر أو الابتلاء، ولكن أصلها ثابت، ومرجعها عند الفتن والمصائب إلى الله.

وطمأنينة النفس لا تعني انعدام الحزن أو الخوف؛ فقد يحزن المؤمن ويتألم، ولكنه لا يعترض على الله ولا ييأس من رحمته. فقلبه يجد سكينته في معرفة الله وذكره والتوكل عليه، كما قال تعالى: **{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28]. وقال الله تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر: 27-30].**

ومن علامات النفس المطمئنة المبادرة إلى الطاعة، والثبات عند الابتلاء، والرضا بالله ربًّا، والرجوع إليه عند الخطأ، وعدم الاضطراب الشديد أمام تقلبات الدنيا.

العلاقة بين هذه الأحوال

هذه الأوصاف لا تعني أن الإنسان يملك أربع نفوس منفصلة، وإنما هي أحوال قد تتعاقب على النفس الواحدة.

فإذا غلب الهوى على النفس أمرت بالسوء، وإذا أرادت إقناع صاحبها بالمعصية زيّنتها وسوّلتها له، فإذا استيقظ الإيمان بعد الذنب لامت النفس صاحبها، وإذا زكت النفس واستقامت على معرفة الله وطاعته بلغت مقام الطمأنينة.

وقد يجتمع في الإنسان في اليوم الواحد شيء من هذه الأحوال؛ فيقع في التسويل عند موقف، ثم تلومه نفسه، ثم يتوب ويذكر الله فيطمئن قلبه، لذلك فالتزكية ليست حالة ثابتة يحصل عليها الإنسان مرة واحدة، وإنما هي مجاهدة مستمرة.

كيف تنتقل النفس من الأمر بالسوء إلى الطمأنينة؟

يكون ذلك بتقوية الإيمان، وصدق التوبة، ومحاسبة النفس، وكثرة ذكر الله، وتدبر القرآن، والمحافظة على الصلاة، ومخالفة الهوى، والبعد عن أسباب الفتنة، ومصاحبة الصالحين، والدعاء بأن يزكي الله النفس.

قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]

فيها تفسيران للعلماء:

الأول: أن المراد: قرب ملائكة الله الموكلين بالإنسان، ويؤيده قوله بعدها: **{إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ}.**

القول الثاني: المراد إحاطة علم الله بالإنسان.

وعلى كلا القولين فالآية تدل على أن الإنسان لا يخفى أمره على ربه، وأن أقواله وأعماله محفوظة مكتوبة.

ما هو (حَبْلِ الْوَرِيدِ)؟

هو حبل العاتق وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان عن يمين وشمال في جانبي الرقبة؛ وإذا قطع هذان العرقين يموت الإنسان، وفي المبالغات في اللغة العربية يقولون: **ذبحوه من الوريد إلى الوريد.**

والمقصود هنا بيان لمدى قدرة الله تعالى عليه وأنه ليس هناك لا إنس ولا جن ولا أي مخلوق يعجز الله عز وجل؛ فالله تعالى كما أن علمه محيط فقدرته شاملة لا يعجزه شيء.

فإذا ظن هؤلاء الكفار بإعراضهم وتكذيبهم وصدهم عن سبيل الله أنهم سيعجزون الله فالله أقرب إليهم من حبل الوريد، وهو قادر على أن يسلبهم الحياة وقادر على أن يجعلهم عدماً أو يميتهم أو أن يفاجئهم بعذابه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: 17]

هاتان الآيتان المباركتان مرتبطتان بقول الله تعالى قبلهما ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فالله عز وجل أخبر أنه هو الذي خلق الإنسان وأنه يعلم سره وعلانيته، وأنه من إحاطة علمه جل وعلا أنه يعلم ما توسوس به نفس الإنسان، وأنه سبحانه وتعالى أقرب إلينا من حبل الوريد.

فالمعنى: ونحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان، وهما الملكان الموكلان به، أي نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملك يخبر، ولكنهما وكلا به إلزاما للحجة، وتوكيدا للأمر عليه، فجعل عليه من الحافظين شهوداً يشهدون عليه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 10-12]

إذن فالله تعالى ليس بحاجة إلى أعوان ليدرك أو ليعلم ما يصدر عن العباد من أقوال أو أفعال؛ فأي مسؤول في الدنيا عنده بطانة من المستشارين والأعوان يرفعون إليه التقارير، أما الله سبحانه وتعالى فقد أحاط بكل شيء علماً، وأما الملائكة التي وكلها الله بنا فهي لإقامة الحجة على العباد، والله تعالى عالم بأعمال العباد لا تخفى عليه منها خافية، وإنما جعل الكتبة الحفظة وكتابة الأعمال من تمام إقامة الحجة وإظهار عدله سبحانه يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ التلقي: أخذ الشيء من يد معطيه؛ استعير لتسجيل الأقوال والأعمال حين صدورها من الناس، ومعنى التلقي هنا أن الله أوكل بهم مهمة رصد كل ما يصدر عن الإنسان.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ وهما متلقيان أي ملكان كما ورد في التفسير عن كثير من السلف؛ فملك عن اليمين يكتب الحسنات، وملك عن الشمال يكتب السيئات.

ومعنى قعيد أي ملازم لصاحبه لا ينفك عنه كما نقول عن المشلول قعيد بسبب المرض الذي لا ينفك عنه، فالملكان عن اليمين وعن الشمال قعيد أي أنهما ملازمان لصاحبهما لا ينفكان عنه.

ما تفسير قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، ولم يقل: قعيدان، وهو وصف للمَلَكَيْن اللذَيْن سبق ذكرهما بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾؟

هذا باعتبار أنه عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، حذف الأول لدلالة الثاني عليه.

وهناك بعض الخرافات أن ملك اليمين على الكتف الأيمن وملك الشمال على الكتف الأيسر وهذا لا دليل عليه فالله لم يقل "على اليمين" إنما قال "عن "التي تفيد المجاورة والمجاوزة، فالملك لا يجلس فوق الكتف؛ كما يتوهم البعض بل هو ملك عن يمينك جهة اليمين، وملك عن شمالك جهة الشمال ليس لهما تعلق بمكان في جسدك وإنما يجاورونك.

ومن لطف الله جل وعلا أننا لا نشعر بهم، فالإنسان لو شعر أنه مراقب لا يستطيع الحياة بحرية، فلو قيل لك إن حركاتك مصورة، ومسجلة ستجد الحياة صعبة، لأنك مراقب في كل سكناتك، وتقلباتك، وجدك ومزحك؛ فالله تعالى من لطفه أن أوكل بنا الملائكة لكننا لا نشعر بهم أبداً، ولا يمثلون لنا أي عائق في مباشرة حياتنا الدنيا.

ومن أيقن هذا خاف الله -تبارك وتعالى- وكف عن كل ما لا يليق، وصار عليه رقيب من نفسه؛ لأنه يعلم أنه لا يحصل له خلوة إطلاقاً، فالخلوة على هذا الاعتبار متعذرة، هي خلوة عن الناس، ولكن الله يراه والملكان معه يكتبان ويرصدان، ويراقبان وينظران .

قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ) لماذا قال من قول؟ ولم يقل من قول أو فعل؟

خصَّ القول بالذكر لما للسان من عظيم الخطر وكثرة ما يترتب على أقوال الإنسان من حسنات وسيئات، فغالب الطاعات والسيئات تكون باللسان وهو جارحة من أخطر الجوارح، وبه يتعلق الكثير من الأعمال؛ **فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: "ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ" [رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح]**

وهذا سبب من أكبر الأسباب الموجبة للنار لأنهم يتكلمون ولا يدركون خطورة ما يتكلمون به.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ" [رواه البخاري]

وهذا ما نراه في وسائل التواصل اليوم حيث ينتشر المقطع الذي لا يتجاوز الدقيقة فيراه الملايين وقد يكون فيه نشر لخير، أو نشر لشر، وفضح لعورات الناس.

(رقيب) أي يراقب ويحافظ ويرصد الأعمال.

(عتيد) أي مهيأ ومعد وحاضر للكتابة؛ فالملك عن اليمين قد أقدره الله على أن يدرك الحسنات فيسجلها، والملك عن الشمال يدرك السيئات فيسجلها؛ فكلاهما حاضر مهيأ لا يغيب، ولا يذهب لحاجة، أو ينشغل بأكل، أو شرب، أو نوم، بل ولا يحصل له نعاس، أو غفلة ؛ فالملك يرقبه في كل لحظة لا يغيب عنه شيء من هذه التصرفات، فالمخلوق قد يرقب مخلوقاً، ولكنه ينشغل عنه، بمكالمة غيره، أو بنوم، ولكن هذا الملَك رقيب عتيد فهو حاضر لا يغيب بحال من الأحوال، وكل ما يصدر من العبد فهو يرصده ويكتبه، ومعدٌّ لكتابته متخصص في هذا ليس عنده شغل آخر يشغله عنه.

ومشهور عند بعض الناس أن رقيب وعتيد أسماء للملكين وهذا فهم خاطئ والصواب أن "رقيب عتيد" وصف لملك اليمين و "رقيب عتيد" وصف لملك الشمال فهذا وصف وليس اسماً لأن واو العطف تفيد المغايرة وهي غير موجودة بالآية فلو قلت جاء محمد وعلي فهما شخصان أما لو قلت جاء محمد الكريم فهو وصف لشخص واحد.

إن الله كتب الحسنات والسيئات

وإذا كانت الملائكة تكتب أعمال العباد، فإن من رحمة الله وعدله أن بيَّن لنا كيف تُحسب الحسنات والسيئات؟

وقد بين النبي ﷺ كيف تكتب الملائكة الحسنات والسيئات؟

ففي الحديث: عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال :(إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسناتٍ إلى سبعمائة ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وإن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيئةً واحدة) رواه البخاري ومسلمٌ.

قوله: (فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً)

"فلم يعملها": لسبب طرأ أو لكسلٍ أو نحو ذلك؛ وكُتِبَ الهمُّ حسنة؛ لأنه سبب لعملها وسبب الخير خير.

" كاملة": وُصِفَت بالكمال؛ لئلا يتوهم أن كونها مجرد همّ ينقص ثوابها.

قوله: (وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسناتٍ إلى سبعمائة ضِعفٍ)

وهذا التضعيف ملازم لكل حسنة، كما دل عليه قوله تعالى :﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 160]

وهذا أقل ما وُعِدَ به من التضعيف، وقد تقع المضاعفة إلى ما شاء الله تعالى، كما قال في الحديث: **"إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ." كما في قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: 261]** فدلت هذه الآية على أن النفقة في سبيل الله تُضاعَف بسبعمائة ضعف.

والضعف: بكسر الضاد، أي المثل، واستُعْمِل في المثل وما زاد عليه، وذلك بحسب إخلاص النية وصدقها.

وفي حديث أبي مسعود قال: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله، فقال: لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة) أخرجه مسلم.

الناقة المخطومة هي الناقة التي وُضع في أنفها أو رأسها "خِطام"، وهو حبل أو زمام يُشد به أنف البعير ليقاد ويُتحكم فيه بسهولة.

(إلى أضعافٍ كثيرةٍ) بحسب الزيادة في الإخلاص والصدق فيه، وبحسب فضل العمل وقوة العزيمة وحضور القلب وتعدي النفع؛ كالصدقة والعلم والسنة الحسنة، ونحو ذلك.

وإنما أُبهم التضعيف؛ لأنَّ ذكر المبهم في مقام الترغيب والترهيب أقوى في الحث.

(وإن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً)

أي أراد فعل ذنب، وسميت سيئة؛ لأنها تسوء صاحبها في الدنيا والآخرة. وتُسمى خطيئة؛ لأن شأنها ألا تقع من عاقل إلا على سبيل الخطأ.

(فلم يعملها): أي تركها قولًا كانت أو فعلًا أو اعتقادًا لله تعالى، لا لنحو عجز عنها أو حياء أو خوف أو رياء.

وفي روايات الحديث: "إنما تركها من جرائي" أي: من أجلي.

فمن تركها لأجل الله والخوف منه، وترك الإقدام عليها، ورجع عن الهمّ بها؛ كان هذا الرجوع والترك عملًا صالحًا يُجازى عليه العبد بالحسنة.

فإذا تركها من أجل الخلق أو نحو ذلك؛ كأن يتركها خوفًا من المخلوقين أو رياء فقد قيل إنه يُعاقب على تركها بهذه النية؛ لأن تقديم خوف المخلوقين على خوف الله محرم، وقصد الرياء للمخلوقين حرام.

هل الملكان يكتبان كل شيء؟

قولان للعلماء:

القول الأول :كل شيء يكتب لأن رب العالمين قال ﴿**مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ **[ق: 18]** لأن ظاهر الآية يدل عليه لأنه قال :مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ، ف (قول): نكرة في سياق النفي، وقد سبقت بمن والنكرة في سياق الشرط أو النفي أو الاستفهام تكون للعموم.

القول الثاني: الأشياء التي لا ثواب فيها ولا عقاب لا تكتب، لأنها لا ينبني عليها شيء وهو الكلام المباح، أو الأفعال التي لا يترتب عليها جزاء، وهذا ما أرجحه لأن المراقبة هنا تتعلق بما في الأقوال من خير أو شر، ليكون عليه الجزاء فلا يكتب الحفظة إلا ما يتعلق به صلاح الإنسان أو فساده؛ إذ لا حكمة في كتابة ذلك، وإنما يكتب ما يترتب عليه الجزاء، فيسجل كل ما يترتب عليه ثواب أو عقاب فقط.

مواقيت رفع الأعمال

وبعد أن عرفنا أن الأعمال تُكتب، يبقى سؤال آخر: ماذا يكون لهذه الأعمال بعد كتابتها؟

بين لنا الرسول ﷺ أن الأعمال تكتب ثم ترفع إلى رب العالمين وهناك عرض يومي، وعرض أسبوعي، وعرض سنوي.

أولا / الرفع اليومي للأعمال

كما في الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع الله عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهي إليه بصره من خلقه) رواه مسلم

وقوله: (يخفض القسط ويرفعه) القسط هو الميزان؛ لما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة: (وبيده الميزان يخفض ويرفع)

وسمى قسطا لأن القسط العدل، وبالميزان يقع العدل، والمراد أن الله تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن من أعمال العباد المرتفعة ويوزن من أرزاقهم النازلة .

وقوله: (يرفع الله عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل) أي يُرفَع إليه عملُ النهار في أول الليل الذي بعده، وعملُ الليل في أول النهار الذي بعده؛ فإن الحَفَظة يصعدون بأعمال الليل بعد انقضائه في أول النهار، ويصعدون بأعمال النهار بعد انقضائه في أول الليل؛ ففي هذين الوقتين تُرفَع التقارير اليومية آخرَ كل يوم وليلة، فعملُ النهار يُرفَع في آخره، وعملُ الليل يُرفَع في آخره، وهكذا، وهذا الرفع يُطلَق عليه الرفع الخاص؛ أي: خاص بعمل الأيام والليالي.

ثانيا/ الرفع الأسبوعي يومي الاثنين والخميس

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس، فقيل له (أي سُئل عن ذلك): قال: إن الأعمال تُعرض كل اثنين وخميس فيُغْفَر لكل مسلم ـ أو لكل مؤمن ـ إلا المتهاجرين، فيقول أَخِّرهما) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وعند الترمذي بلفظ: (تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحبُّ أن يُعْرض عملي وأنا صائم)

النوع الثالث: الرفع السنوي في شعبان

كما جاء في الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، لم أرك تصوم من الشهور ما تصوم من شعبان قال: ذاك شهر يغفل الناس عنه،

بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع الأعمال فيه إلى رب العالمين، فأحِبُّ أن يرفع عملي وأنا صائم أخرجه الإمام أحمد والنسائي وصححه الألباني.

ورفع الأعمال إلى الله تعالى مع كونه صائماً أدعى إلى القبول عند الله تعالى

مشهد نشر الصحف وسجلات الأعمال

وهذه الأعمال كلها تكتب في سجلات كبيرة، ثم تنشر يوم البعث والنشور، **يقول الله تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ: 29]** وقوله تعالى: **﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: 10]، ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ [الإسراء: 13- 14].**

وهذه الصحف ليست كدفتر أو كراس كالتي نفتحها في الدنيا، وقد أشار الرسول ﷺ إلى ذلك في حديث البطاقة:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا، أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله)، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: فإنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات، وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله – تعالى – شيء) رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

تصور عن عرض الأعمال يوم القيامة:

ونفهم من آيات القرآن الكريم أن هذا التسجيل ليس كتابة يقرؤها العبد يوم القيامة بل سيقرأ ويرى؛ قال تعالى: **﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: 40]**

ولتقريب المعنى للأذهان: نحن الآن نفتح أي صفحة إخبارية إلكترونية فنجد الخبر مكتوباً ثم يليه المقطع المصور لهذا الخبر فأنت في صفحة واحدة إن أحببت أن تقرأ

قرأت، وإن أحببت أن تستوثق بالمشاهدة فهذا أيضا متاح؛ فهكذا الأعمال يوم القيامة حيث قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ **[الكهف: 49]** أي مشاهداً أمامهم.

وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: 167] فكل شيء مسجل ومدون ولا يظلم ربك أحداً حتى يقول المجرمون يوم القيامة: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ **[الكهف: 49]**

مكفرات الذنوب وما يمحو الخطايا

وقد علمنا رسول الله ﷺ إذا أسأنا أن نحسن، وبيّن أن الحسنة تمحو السيئة:

فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لي: "اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ" [رواه الترمذي وقال حديث حسن]

وفي حديث آخر قال ﷺ "أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ" [رواه مسلم]

وفي حديث ثالث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته، وصلاته في سوقه، بضعا وعشرين درجة، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا ينهزه(لا يخرجه) إلا الصلاة، لا يريد إلا الصلاة، فلم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه، يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يحدث فيه"؛ متفق عليه

باب التوبة مفتوح

ومع أن هذه التقارير تكتب وترفع إلى رب العباد، إلا أنه – تبارك وتعالى – تواب يحب التوابين؛ ولذلك فقد جعل للتوبة بابا مفتوحا إلى أن تطلع الشمس من مغربها؛ **كما جاء في حديث عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: (إن الله عز وجل يبسط يده**

بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها) رواه مسلم.

وهذا من كرمه عز وجل أن يقبل التوبة حتى وإن تأخرت، فإذا أذنب الإنسان ذنبا في النهار، فإن الله تعالى يقبل توبته ولو تاب في الليل، وإذا أذنب وتاب في النهار، فإن الله تعالى يقبل توبته، بل إنه تعالى يبسط يده حتى يتلقى هذه التوبة التي تصدر من عبده المؤمن فإذا تاب العباد توبة صادقة، تاب الله عليهم، وبدّل السيئات حسنات، كما أخبر بذلك في قوله: ﴿**إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ [الفرقان: 70]

فإذا كانت الكلمات مكتوبة، والأعمال محفوظة، والصحف ستُنشر، وباب التوبة لا يزال مفتوحًا، فهذه ست وصايا:

1. احرص أن تقدم العمل الطيب فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.
2. اقرن عملك بالإخلاص فأعمالك بدونه تكون هباء منثورًا، ولن تجني منها سوى التعب.
3. ليكن لك خبيئة لا تراها الأعين ولا تسمعها الآذان ولا تلتقطها العدسات.
4. احذر الشحناء فإنها تمنع قبول الأعمال كما سبق بيانه في الحديث.
5. داوم على الأعمال الصالحة ولو كانت قليلة ليُكتب لك أجرها ولعل الله يختم لك عليها.
6. أكثر من الدعاء أن يتقبل الله منك وأكثر من الاستغفار.

الآثار الإيمانية والتربوية للآيات

1- أن يزول من قلب المسلم أي شك في البعث، فهو لا ينظر إلى الأجساد التي تحللت في الأرض بمقياس القدرة البشرية، وإنما ينظر إليها في ضوء قدرة الله المطلقة.

2- لا بد من التفريق بين صفات الخالق وصفات المخلوق؛ فمنشأ شك المكذبين أنهم قاسوا قدرة الله بقدرتهم؛ فما عجز الإنسان عن فعله ظنوه مستحيلًا؛

فالإنسان يتعب ويضعف وينسى، أما الله سبحانه فلا يعجزه شيء، ولا يلحقه تعب ولا غفلة ولا نسيان.

3- استحضار إحاطة علم الله بالظاهر والباطن؛ فالله يعلم أفعال الإنسان الظاهرة، ويعلم ما يدور في داخله من مشاعر وخواطر ونيات ورغبات، وإذا استقر هذا المعنى في القلب، أصبح الإنسان أشد عناية بباطنه؛ لأنه يعلم أن الناس قد يرون حسن مظهره، لكن الله يعلم حقيقة قصده، ومن هنا يتعلم المؤمن أن صلاح العمل لا يكون بصورته وحدها، بل لا بد من الإخلاص.

4- تربية المؤمن على مراقبة الله في الخلوة؛ لأنه يعلم أن ابتعاده عن أعين الناس لا يعني غيابه عن علم الله، وأن الإيمان الحقيقي يظهر في الخلوات؛ لأن الإنسان أمام الناس قد يترك المعصية خوفًا من الفضيحة، أما إذا خلا بنفسه ظهر مقدار تعظيمه لله.

5- تزكية النفس تجمع بين تطهيرها من الرذائل، وتنميتها بالفضائل؛ فهي ليست مجرد ترك الذنوب، بل تشمل كذلك غرس الإخلاص والصبر والتواضع والرحمة والصدق والعفة.

6- استحضار مصاحبة الملائكة للإنسان؛ فقد وكل الله بالإنسان ملكين يتلقيان ما يصدر عنه، وكتابة الأعمال من تمام إقامة الحجة وإظهار عدل الله يوم القيامة، مع كمال علمه سبحانه واستغنائه عن كل خلقه.

7- من لطف الله أن الإنسان لا يرى الملكين ولا يشعر بمراقبتهما؛ حتى تستقيم حياته ويظهر صدق إيمانه بالغيب.

8- أن العبادة ليست فعل الطاعات فقط، بل تشمل كذلك ترك المحرمات لله.

المعنى الإجمالي للآيات

1. كمال قدرة الله تعالى :من قدر على الخلق الأول من العدم بلا تعب ولا إعياء، فإعادة الخلق والبعث أهون في تصور البشر، ولا يعجز الله شيء.

2. إنكار البعث سببه الشك والالتباس لا ضعف الدليل :فالخلق الأول نفسه من أعظم الأدلة على إمكان الخلق الجديد.

3. إحاطة علم الله بالإنسان إحاطة تامة :فهو يعلم السر والعلن، بل يعلم ما توسوس به النفس وما تخفيه الصدور من مشاعر وخواطر.

4. الخواطر والوساوس ليست مصدرًا واحدًا :فمنها ما يكون من النفس بسبب شهواتها وعاداتها وميولها، ومنها ما يكون من وسوسة الشيطان.

5. الشيطان لا يجبر الإنسان على المعصية :وإنما يدعو ويزيّن ويستغل ما في النفس من شهوة وغضب وحسد وهوى.

6. علاج وسوسة الشيطان يكون بالذكر والاستعاذة بالله، أما أهواء النفس فتحتاج إلى مجاهدة وتربية وتزكية مستمرة.

7. تزكية النفس تقوم على أصلين :تطهيرها من الرذائل والمعاصي، وتنميتها بالإيمان والطاعات والأخلاق الحميدة.

8. من أعظم مقاصد العبادات تزكية الإنسان :فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج ليست مجرد أعمال ظاهرية، بل وسائل لإصلاح النفس وتهذيبها.

9. الإنسان يستطيع محاسبة نفسه ومخالفة هواها :فليس هو عبدًا لشهواته، بل أعطاه الله عقلًا وإرادة وإيمانًا يستطيع بها أن ينهى النفس عن الهوى.

10. النفس الواحدة تتقلب بين أحوال متعددة، وليست هناك نفوس منفصلة داخل الإنسان: فقد تكون أمارة بالسوء، ثم لوامة، ثم تبلغ الطمأنينة.

11. النفس الأمارة بالسوء هي التي يغلب عليها الهوى والشهوة، فتدعو إلى اللذة العاجلة ولو كانت عاقبتها الضرر والمعصية.

12. النفس اللوامة علامة خير إذا قادت إلى الإصلاح :فالندم المحمود هو الذي يتبعه استغفار وتوبة وتصحيح، لا اليأس والقنوط والوسواس.

13. النفس المطمئنة ليست نفسًا لا تحزن ولا تبتلى، وإنما هي التي يرجع صاحبها إلى الله عند الحزن والفتن، ويثبت أصل إيمانه ورضاه وتوكله.

14. تزكية النفس رحلة مستمرة وليست منزلة تُنال مرة واحدة :فقد يجتمع في الإنسان في يوم واحد تسويل، ثم لوم، ثم توبة، ثم طمأنينة.

15.طريق الانتقال إلى طمأنينة النفس يكون بتقوية الإيمان، والتوبة، ومحاسبة النفس، والذكر، وتدبر القرآن، والمحافظة على الصلاة، ومخالفة الهوى، وصحبة الصالحين.

16.الإنسان مراقَب في السر والعلن :والله محيط به علمًا، وقد وكّل به ملائكة تكتب أعماله، وفي ذلك تربية للمؤمن على مراقبة الله حتى حين يغيب عن أعين الناس.

17.الملكان عن اليمين والشمال ملازمان للإنسان، ووجودهما لكتابة الأعمال وإقامة الحجة يوم القيامة، وليس لأن الله يحتاج إليهما ليعلم أعمال عباده.

18.اللسان من أخطر جوارح الإنسان :فقد تكون كلمة واحدة سببًا في رفعة عظيمة، وقد تكون أخرى سببًا في الهلاك، ولهذا خص القرآن القول بالتنبيه الشديد.

19.وسائل التواصل ضاعفت خطورة الكلمة :لأن كلمة أو مقطعًا واحدًا قد يصل إلى أعداد هائلة، فيتضاعف به نشر الخير أو الشر.

20.رحمة الله في كتابة الحسنات أعظم من مؤاخذته بالسيئات :فالهم بالحسنة يكتب حسنة، وعملها يضاعف عشرًا إلى أضعاف كثيرة، أما السيئة إذا عملت فتكتب واحدة.

21.ترك المعصية لله عبادة يؤجر عليها الإنسان :فليس الفضل فقط في فعل الطاعات، بل في مقاومة داعي المعصية وتركها خوفًا من الله.

22.كل أعمال الإنسان محفوظة وستُعرض عليه يوم القيامة :فلا تضيع صغيرة ولا كبيرة، وسيجد الإنسان ما قدم حاضرًا أمامه.

23.من رحمة الله أن جعل للحسنات أثرًا في محو السيئات :ولذلك ينبغي بعد الخطأ المبادرة إلى التوبة والعمل الصالح، لا الاستسلام للذنب.

24.باب التوبة مفتوح مهما كثرت الذنوب ما دام زمن التوبة باقيًا، والله يقبل من عبده إذا رجع إليه صادقًا، بل قد يبدل سيئاته حسنات.

25.المؤمن ينبغي أن يجمع بين الخوف والرجاء :يخاف لأن أعماله مكتوبة، ويرجو لأن ربه غفور رحيم فتح له باب التوبة ومضاعفة الحسنات.

26.العبرة ليست بكثرة العمل وحدها وإنما بقبوله :ولذلك يحتاج العمل إلى أن يكون طيبًا، خالصًا لله، موافقًا لما يحبه سبحانه.

27.من علامات صدق الإخلاص أن يكون للعبد عمل خفي بينه وبين الله، لا يراه الناس ولا يبحث من خلاله عن مدح أو شهرة.

28.الدوام على العمل الصالح ولو كان قليلًا خير عظيم، وفيه رجاء أن يلقى العبد الله وهو ثابت على الطاعة.

29.الخلاصة الجامعة للشرح:
راقب قلبك قبل جوارحك، ولسانك قبل كلامك، وحاسب نفسك قبل أن تُعرض أعمالك؛ وجاهد هواك، وأكثر من الطاعة والتوبة والاستغفار، حتى تنتقل النفس من سلطان الهوى إلى مقام الطمأنينة.

****

الفصل الخامس

حقيقة الموت ونفخة البعث والنشور

قال تعالى:

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ [ق: 19-20]

الفصل الخامس

حقيقة الموت ونفخة البعث والنشور

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: 19]

هذه نهاية كل حي، ومن مات فقد قامت قيامته أي أن الموت هو القيامة الصغرى لكل إنسان، حيث تنتهي حياته الدنيوية وينقطع عمله، لينتقل فوراً إلى حياة البرزخ، ويُكشف له مآله **(الجنة أو النار)**، والإنسان إذا عُمِّر عُمر نوح في نهاية الأمر سيكون في عداد الموتى، وهذه حقيقة قالها الله تعالى في أكثر من آية من القرآن قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30] وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 34] وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26 – 27].

الحكمة من إخفاء موعد الموت

وذكر الموت ليس الهدف منه أن تدمع الأعين، ويصاب الإنسان بالغم والحزن والكآبة ويظن أنه لن يخرج من المسجد، ولن يعود إلى أولاده.... اطمئن لن يموت أي إنسان إلا مرة واحدة فقط؛ عش قدر ما تعيش لأنك لن تموت إلا مرة واحدة.

لما ارتقى رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى قال له أبو بكر الصديق بعد أن قبله بين عينيه: " بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عز وجل عليك موتتين أبدا، أما الموتة التي قد كتبت عليك فقد متها" (رواه البخاري)

فهي موتة واحدة لكن السؤال: هل أنا مستعد للقاء الله؟ ما هو عملي الذي سألقى الله به؟ هل أنا في غفلة من هذا الأمر أم أنا منتبه لهذه اللحظة التي سأفارق فيها الدنيا؟

الاستعداد للسفر الطويل

عندما يسافر أي شخص إلى مكان يجهز حقيبة السفر يضع فيها كل ما يحتاجه في سفره؛ فماذا عن سفرنا إلى الدار الآخرة؟ **قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾**

[البقرة: الآية 197] وهذا معنى ما ورد في الأثر " أحكم السفينة فإن البحر عميق واستكثر من الزاد فإن السفر طويل" [1]

ما الحكمة من إخفاء ميعاد الموت؟ أخفى الله عنا ميعاد الموت لسببين:

أولاً/ رحمة بعباده:

لو افترضنا أن الإنسان عنده بطارية مثل بطارية الهاتف تمثل عمره في هذه الدنيا، أو عنده علم مسبق بتاريخ وفاته تخيلوا كيف تكون حياته؟! [2]

وعندما يبدأ العد التنازلي: بقي خمس سنوات... ثلاثة .... عام.... شهر... أسبوع... يوم... تخيلوا الحالة النفسية كيف تكون؟

عذاب وقلق وتوتر لا تطيب له حياة ولا يطيب له مقام ولا عيش، ولا فرحة!!

فمن أصعب الأمور على الإنسان أنه يقال له: إنك ستموت غداً أو بعد غد أو الأسبوع المقبل، أو عمرك في الدنيا كذا... فمن رحمة الله أن أخفى علينا ميعاد الموت **"فما أضيق العيش لولا فسحة الأمل"**

---

[1] هذا الأثر مشهور في كتب الوعظ والرقائق كـ "تنبيه الغافلين" و "الكبائر" للذهبي، وذكره الديلمي في "الفردوس" بلا إسناد، ويعتبره المحققون أثرًا ضعيفًا جدًا، والأفضل عدم نسبته للرسول كحديث ويجوز الاستشهاد به على انه أثر معناه صحيح .

[2] وأذكر قصة حدثت وأنا في سن الرابعة عشر؛ كان معنا في المسجد رجل طيب أحيل للتقاعد (سن المعاش) وكان محافظا على الجماعة وعلى الصف الأول ، وصار أغلب ساعاته في المسجد وجعل همته في طاعة الله، هذا الرجل رأى في الرؤيا أنه يقرأ سورة النصر "إذا جاء نصر الله والفتح" فجلس مع مجموعة من أصدقائه في المسجد يسألهم عن تأويل رؤياه ، قالوا : فلان عنده كتاب تفسير الأحلام لابن سيرين، وجاءؤا بالكتاب، وإذ بتأويل الرؤيا أن من رأى أنه يقرأ سورة النصر فقد اقترب أجله، لأن هذه السورة نزلت في أواخر حياة رسول الله ﷺ ، وابن عباس فسرها بأن الله نعى نبيه لنفسه، وبعدها أصيب الرجل بحالة عجيبة جداً زهد في كل شيء فلم يعد يأكل ولا يشرب ولا يتحرك من مكانه، يذهب فقط للحمام ساعة الصلاة يتوضأ ويصلي على السرير، وثقل جسمه فلم يعد يقوى على الحركة، وذهبوا به إلى المستشفى، وقال الأطباء ليس به بأس لكنه كان لا يتكلم ولا يأكل يعيش على المحاليل الطبية فقط، في آخر يوم قبل أن يتوفى دعا ابنه الأكبر وحكى له هذا القصة قال له: من ساعة أن عرفت تأويل هذه الرؤيا وعلمت أنه قد اقترب أجلي أصابني هذا الفزع الكبير صرت مفزوعاً. وموهوماً وركبني الهم والخوف وما أظن أني أعيش إلا أياماً معدودة، ثم قُبض في هذا اليوم رحمه الله وقص ابنه علينا هذا المشهد مع أبيه.

ثانيا/ حتى نبقى على استعداد دائم للقاء الله تعالى:

طالما أن الأمل موجود والعمر ممتد فإن كل يوم هو إضافة لعملك الصالح غنيمة نغتنمها بيننا وبين الله عز وجل نتزود بالزاد وبالعمل الصالح، وبالإقبال على الله، ونرضى بالقليل، ونتوب من الذنوب، والمعاصي، ونستكثر من الزاد؛ فيبقى الإنسان على استعداد دائم بالعمل الصالح.

والمقصود من ذكر الموت ليس الغم والكآبة والقلق والحزن؛ إنما رجاء المؤمن إذا جاء أجله، وحان الوقت أن يتوفاه الله وهو راضٍ عنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أكثروا ذكر هاذم اللذات)[1]

أي أكثروا من تذكُّر الموت؛ لأنه يقطع لذات الدنيا وشهواتها، ويوقظ القلب من الغفلة، ويذكّر الإنسان بأن هذه الحياة مهما طالت فهي مرحلة قصيرة يعقبها الوقوف بين يدي الله تعالى.

لماذا أمر النبي ﷺ بالإكثار من ذكر الموت؟

لأن الغفلة عن الموت من أعظم أسباب التعلق بالدنيا وطول الأمل، فإذا استحضر الإنسان أنه قد يفارق الدنيا في أي وقت تغيّرت أولوياته.

فذكر الموت يدفعه إلى المبادرة بالتوبة، والمحافظة على الصلاة، ورد الحقوق والمظالم، والإحسان إلى الوالدين، وإصلاح ما بينه وبين الناس، والاستكثار من العمل الصالح.

ولهذا كان ذكر الموت **علاجًا لطول الأمل**، فإذا دعته نفسه إلى معصية تذكّر أنه قد يلقى الله بعدها، وإذا اشتد حرصه على الدنيا تذكّر أنه سيتركها. وإذا تكبر على الناس تذكّر أنه سيُحمل يومًا على الأكتاف ثم يوضع في قبره.

ذكر الموت لا يعني ترك الدنيا

---

[1] ورد الحديث باللفظين «هادِم» بالدال و«هاذِم» بالذال قد وردا في روايات الحديث. فـ «هادِم اللذات» من الهدم، أي الذي يهدم اللذات ويقطعها، و«هاذِم اللذات» من الهَذْم، وهو القطع، أي قاطع اللذات. أما ما يرد بحرف الزاي «هازِم» فغير صحيح.

وهنا ينبغي التنبيه إلى معنى مهم: النبي ﷺ لم يأمرنا باعتزال الحياة، ولا بترك العمل والتجارة والزواج والفرح بما أحل الله.

إنما المقصود أن تكون الدنيا **في اليد لا في القلب**.

تعمل، وتتزوج، وتبني، وتتعلم، وتكسب المال، وتستمتع بالطيبات، لكنك تعلم أن هذه كلها وسائل وليست الغاية الكبرى.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77] فالإسلام يجمع بين **عمارة الدنيا والاستعداد للآخرة**.

وهذه الحال ليست فجائية ولا كما يتوهم البعض أنت وحظك!! كلا؛ فإن الله سبحانه وتعالى أمضى عادته بكرمه أن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، **وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27]**

ويقول النبي ﷺ: "يُبعث كل عبد على ما مات عليه" رواه مسلم

فمن عاش على طاعة الله مستقيما على صراطه نستبشر له بحسن الخاتمة.

ومن كان يعيش في ضلال يأكل حراماً ويغتصب أموال الناس ويسرق فماذا نتوقع من خاتمته؟ فهذا طريق لا يؤدي إلى الجنة ولا يبشر بخير.

فحسن الخاتمة ليس وليد لحظة الوفاة إنما هو نتيجة حياة في طاعة الله عز وجل.

كيف يكون ذكر الموت نافعًا؟

ليس المقصود أن يقول الإنسان بلسانه: "سأموت، سأموت" ثم لا يتغير شيء في حياته؛ إنما الذكر النافع هو الذي يولّد عملًا.

إذا تذكرت الموت فانظر: هل عليك دين لم تقضه؟ هل ظلمت إنسانًا؟ هل قطعت رحمًا؟ هل عندك صلاة تضيّعها؟ هل هناك ذنب تؤجل التوبة منه؟ هل لك مال ينبغي أن تكتب فيه وصية؟ هذا هو المقصود الحقيقي من الحديث.

ولهذا جاء الحديث الآخر الذي يكمّل هذا المعنى: **(يتبع الميت ثلاثة: فيرجع اثنان ويبقى واحد؛ يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله)**.

فكل شيء نحبه من الدنيا سينفصل عنا، ويبقى معنا شيء واحد :**العمل**.

ولهذا فذكر الموت لا يفسد الحياة، بل قد **يصلحها**؛ لأنه يجعل الإنسان أكثر توبة، وأقل ظلمًا، وألين قلبًا، وأسرع إلى الخير.

يقول تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: 19]

السكرة المقصود بها في اللغة: شدة الموت لأن الإنسان يغيب عن الوعي ويفيق، وهي مشتق من السَّكر بفتح فسكون وهو الغلق لأنه يغلق العقل ومنه جاء وصف السكران.

فسكرات الموت هي الشدائد والكربات والآلام التي تعتري الإنسان عند حضور أجله وخروج روحه من جسده، وسميت "سكرات" لأن شدتها قد تغشى العقل والحواس، فيكون الإنسان بين وعي وضعف وغمرات شديدة، كحال من غُلب على إدراكه، وليس المقصود بالضرورة أنه يفقد وعيه تمامًا.

والروح تنزع من الإنسان نزعا ، كما في قوله تعالى: ﴿**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا**﴾ [النازعات: 1-2] قال العلماء: إن معنى النازعات الملائكة تنزع روح الكافر فتغرق وتشتد في النزع، لأنها تهرب فتشتد الملائكة عليها في النزع ، أما عباد الله المؤمنين -نسأل الله حسن الخاتمة- فالملائكة تنشط أرواحهم نشطا، يعني تفكها فكاً بمعنى أن البعير إذا ربط ثم تم حل الرباط ينشط فيقال: أنشطته يعني فككت وثاقه أو حللت رباطه فانطلق؛ فمعنى(**والناشطات نشطاً**) أي أنها تنشط الروح من الجسد نزعاً خفيفاً ثم بعد ذلك ترقى بها الملائكة إلى السماء.

وعلى الرغم من هذا فإن نبينا ﷺ لما حضرته الوفاة كان بين يديه ركوة إناء فيه ماء فكان يمسح على جبينه ويقول: "لا إله إلا الله إن للموت لسكرات " رواه البخاري، وفي رواية أنه كان يدعو قائلا: " اللهم هون على سكرات الموت"

ولما حضرت الوفاة أبا بكر الصديق قالت ابنته عائشة الصديقة أم المؤمنين متمثلة ببيتا من الشعر:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

يعني لا ينفع المال ولا الغنى، والحشرجة هي صوت خروج الروح عندما يخور ويخرج منه صوت عند خروج الروح قبل الموت فتقول إن الغنى والمال لا ينفعان أحداً بشيء إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر، فلما أفاق بين سكرة الموت والحياة قال لها: لا يا ابنتي لا تقولي هذا وإنما قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [سورة ق: الآية 19]

لحظات خروج الروح:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله، وكأن على رؤوسنا الطير[1]، وفي يده عود ينكت في الأرض[2].

فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثًا.

ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط[3] من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر.

ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان.

قال :فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء[4]، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض.

---

[1] كناية عن شدة السكون والإنصات؛ أي كانوا ساكنين لا يتحركون كأن طيرًا وقف على رؤوسهم ويخشون أن يطير.

[2] وكان النبي ﷺ ينكت بعود في الأرض، وهو مشهد يدل على التفكر والاعتبار أمام حقيقة الموت.

[3] الحنوط :الطيب الذي يوضع للميت، وهذا الكفن والطيب ليسا الكفن الذي يراه الناس في الدنيا، وإنما أمر من عالم الغيب يتعلق بروحه.

[4] فيّ أي فم القربة السقاء :القربة التي يوضع فيها الماء، فإذا كان في فم القربة قطرة ماء فإنها تنزل بسهولة؛ أي أن روح المؤمن تنقاد لخالقها وييسر الله خروجها، وهذا لا يعني أن المؤمن لا يشعر بسكرات الموت؛

قال :فيصعدون بها، فلا يمرون - يعني بها - على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة.

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض؛ فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى.

قال :فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله.

فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ.

فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت.

فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة.

قال :فيأتيه من رَوحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره.

قال :ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد.

فيقول له :من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير.

فيقول :أنا عملك الصالح.

فيقول :رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي".

فقد قال النبي ﷺ نفسه:"إن للموت سكرات" وإنما المقصود أن روح المؤمن لا تُنتزع ذلك الانتزاع العنيف الذي وصف به روح الكافر.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح[1]، فيجلسون منه مد البصر.

ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب.

قال :فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود [2]من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض.

فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له".

ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40]

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى.

فتطرح روحه طرحًا، ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31].

فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري.

فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري.

---

[1] المسوح :ثياب خشنة، وفي هذا بيان الإهانة المقابلة لإكرام المؤمن بكفن الجنة وحنوطها.

[2] السَّفُّود :سيخ من الحديد له شعب أو خشونة، فتصور سيخًا خشنًا مغروسًا في صوف مبلل ثم يُسحب منه؛ يتعلق به الصوف ويتقطع، وفي أحد روايات الحديث: (تتقطع معها العروق والعصب) وهذا تصوير لشدة نزع الروح.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري.

فينادي مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار.

قال :فيأتيه من حرها وسمومها[1]، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه.

ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد.

فيقول :من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر.

فيقول :أنا عملك الخبيث.

فيقول :رب لا تقم الساعة) رواه أحمد وصححه الألباني.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: 19]

تحيد أي تميل عن الشيء أو تفر منه، أي هذا ما كنت منه تفر وتهرب، تحيد من المرض إلى الطبيب ومن الخطر إلى السلامة، تفر من أسباب الهلاك إلى النجاة، ذلك ما كنت منه تحيد؛ الآن لا ينفع طبيب، ولا ينفع مفر، ولا مهرب، لأن أمر الله تعالى قد نفذ.

وقد نزل جبريل الأمين على النبي الحبيب ﷺ بخمس كلمات قال: (يا محمد عش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعلم أن شرف المؤمن صلاته بالليل وعزه استغناؤه عن الناس) أخرجه الحاكم في المستدرك وحسنه الألباني.

هارون الرشيد عند وفاته:

لما نام هارون الرشيد على فراش الموت، نظر إلى جنده وسلطانه ثم قال: (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ) [الحاقة:28-29] ثم قال: أريد أن أرى

---

[1] السَّموم :الريح الشديدة الحرارة؛ فتأتيه حرارة النار ولفحها من الباب المفتوح إليها.

قبري الذي سأدفن فيه، فحملوه إلى قبره، فلما نظر إلى القبر بكى، ثم نظر إلى السماء وقال: يا من لا يزول ملكه! ارحم من قد زال ملكه.

يقول تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: 20]

ما هو الصور؟

الصور في لغة العرب: القَرْن، وقد سئل الرسول ﷺ عن الصور، ففسره بما تعرفه العرب من كلامها، كما في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: "ما الصور؟ قال: الصور قرن ينفخ فيه "قال الترمذي حديث حسن صحيح.

ولا يعلم مقدار عظم هذه البوق إلا الملك جل جلاله.

النَافخ في الصُّور

صاحب الصور إسرافيل عليه السلام، وقد نقل الإجماع على أن نافخ الصور هو إسرافيل عليه السلام، **قال الحافظ في الفتح:** (اشتهر أن صاحب الصور إسرافيل عليه السلام، ونقل فيه الحليمي الإجماع، ووقع التصريح به في حديث وهب بن منبه، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي، وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه، وكذلك في حديث الصور الطويل)[1]

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن صاحب الصور مستعد دائماً للنفخ فيه كما في الحديث:

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "كيف أنعم، وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ، فينفخ. قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا "رواه الترمذي.

اليَوم الذي تقع فيه النفخة

[1] يُنظر: (فتح الباري).(11/ 368)

تقوم الساعة في يوم الجمعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة "صحيح مسلم

وفي حديث آخر أخبر الرسول ﷺ أن الساعة تقوم في يوم الجمعة، وفيها يُبعث العباد أيضاً، فعن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: "إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصَّعْقَة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ "رواه أبو داود.

قبض أرواح المؤمنين قبل قيام الساعة

والساعة لا تقوم حتى يتحقق خلو الأرض من جميع المؤمنين، دلت على ذلك عدة أحاديث منها:

1 - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس) رواه مسلم.

2 - عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال :(إن الله يبعث ريحا من اليمن، ألين من الحرير، فلا تدع أحدا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته.) رواه مسلم

قبضته: أي قبضت روحه وذلك عند قيام الساعة.

3 -عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله) رواه مسلم.

4 - عن النواس بن سمعان رضي الله عنه الذي ذكر فيه النبي ﷺ الدجال ويأجوج ومأجوج: (فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن، وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة) رواه مسلم.

"الهرْج: الفتن في آخر الزمان. والهرج أيضاً: الاختلاط، ومنه قيل: فلن يزال الهرج إلى يوم القيامة. والهرج أيضاً: كثرة النكاح.

فمعنى **يتهارجون تهارج الحمر** يحتمل للمعنيين معا "بمعنى يتقاتلون" وقيل: معناه: يتخالطون رجالا ونساء ويتناكحون مزاناة.

5- عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : (لا يذهب الليل والنهار حتى تُعْبَدَ اللاتُ والْعُزَّى، فَقُلتُ: يا رسول الله إن كنتُ لأظن حين أنزل الله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: 9] أن ذلك تاماً (أي أن ملَّةَ الإسلامِ ظاهرةٌ على الأَديانِ كلِّها)، قال :إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحاً طيبة فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم) رواه مسلم.

هذه الأحاديث وما في معناها من أحاديث، تدل على أن الساعة لا تقوم إلا على الشرار من الناس فقط، قال القرطبي :"هذا غاية في البيان في كيفية انقراض هذا الخَلق وهذه الأزمان، فلا تقوم الساعة وفي الأرض من يعرف الله، ولا من يقول: الله الله".

كم مرة ينفخ إسرافيل في الصور؟

هناك قولان للعلماء:

القول الأول: أن إسرافيل ينفخ في الصور مرتين:

- **الأولى يحصل بها الصعق.**
- **والثانية يحصل بها البعث.**

وقد رجح هذا جمع من أهل العلم، منهم القرطبي، وابن حجر العسقلاني، وقد استدلوا بـ

1- بقوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ) [الزمر: 68]

2- أيضا سمى القرآن النفخة الأولى بالراجفة، والنفخة الثانية بالرادفة، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: 6-7]

3- وقد سمى الأولى بالصيحة، وصرح بالنفخ بالصور في الثانية، قال تعالى: ﴿**مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ**﴾ **[يس: 49-51]**

4-وقد جاءت الأحاديث النبوية مصرحة بالنفختين: ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ما بين النفختين أربعون ". قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت "

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً، ورفع ليتاً، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق، ويصعق الناس، ثم يرسل الله – أو قال: ينزل الله مطراً، كأنه الطَّلُّ، أو الظِّلُّ، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون "رواه مسلم

الليت: صفحة العنق، وإصغاؤه: إمالته.

القول الثاني: وذهب جمع من أهل العلم إلى أنها ثلاث نفخات، وهي نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث.

وممن ذهب هذا المذهب ابن العربي، وابن تيمية، وابن كثير، وقد استدلوا بـ:

1- أن الله ذكر نفخة الفزع في قوله: **(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ) [النمل: 87]**. فالنفخة الأولى عند القائلين بالثلاث هي **نفخة الفزع**.

والنفخة الثانية هي **نفخة الصعق والموت**، ودليلها قوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ**﴾ **[الزمر: 68].**

ثم ذكر الله بعد ذلك نفخة أخرى فقال: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68]، وهي **نفخة البعث والنشور** .

ويؤكد معنى نفخة البعث قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: 51]

فيكون ترتيب الآيات عند القائلين بالثلاث هكذا :

- **نفخة الفزع :**﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾
- **ثم نفخة الصعق :**﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾
- **ثم نفخة البعث :**﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

2- احتجوا ببعض الأحاديث التي نصت على أن النفخات ثلاث، كحديث الصور، وهو حديث طويل، أخرجه الطبري، **وفيه: "ثم ينفخ في الصور ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين "**لكن للأمانة فهذا حديث ضعيف مضطرب كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى.

لكن أرجح هذا القول الأخير لأنها مذكورة في القرآن بهذا الترتيب:

أولا/ نفخة الفزع:

نفخة الفزع هي النفخة التي يقع عندها الهول العظيم والرعب الشديد في جميع الخلق عند قيام الساعة.

قال اللـه تعالى: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) [النمل: 87].

والفزع هنا هو الرعب الشديد الذي يدخل القلوب عند سماع النفخة؛ أي: هالهم ذلك اليوم هولًا عظيمًا.

ففزع من في السماوات ومن في الأرض !!... أى تنفك كل صلات الكون وروابطه ، تتزلزل الأرض وترتج بأهلها رجَّات عنيفة مزلزلة ، وتصوروا معي هذه المشاهد التى تخلع القلب ، فالشمس قد كورت ، والكواكب تناثرت هنا وهناك وتمزقت بأمر اللـه، والبحار والأنهار لم تعد تحوي بطونها ماء ، فماءها تحول نار أجاج ، والجبـال نسفها الله نسفا ؛ قال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا**

رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 105-108]

ويقول النبى: (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى العين فليقرأ: إذا الشمس كورت، وليقرأ إذا السماء انفطرت، وليقرأ إذا السماء انشقت) رواه الترمذي

ثانيا/ نفخة الصعق والموت:

نفخة الصعق والموت هي النفخة التي إذا وقعت مات بها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وهي من أعظم أهوال الساعة، وقد دل عليها صريح القرآن في قوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ **(الزمر: 68) .**

وأما معنى الصعق في هذا الموضع فهو الموت بسبب الهول والصوت العظيم، فهذه نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله".

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغ ى ليتاً، ورفع ليتاً، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق، ويصعق الناس، ثم يرسل الله – أو قال: ينزل الله مطراً، كأنه الطَّلُّ، أو الظِّلُّ، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون "رواه مسلم

فسبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الذي كتب الموت على جميع الخلائق وهو الحي الباقي الذي لا يموت.

قال تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الزمر: 67]

عن ابن مسعود قال: "جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على

إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر. ثم قرأ: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [الزمر:67]".

وفي رواية لمسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله.

وفي رواية للبخاري: يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع أخرجاه.

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعا: يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟" متفق عليه

ويقول جل جلاله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 15-17]

مات كل مخلوق ولم يبق إلا اللـه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، كان آخراً كما كان أولا ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3] هو الأول فلا شيء قبله وهو الآخر فلا شيء بعده وهو الظاهر فلا شيء فوقه وهو الباطن فلا شيء دونه وهو السميع العليم.

ثالثا/ نفخة البعث والنشور

نفخة البعث والنشور هي النفخة التي يُحيي الله بها الخلق بعد موتهم، فيخرجون من القبور إلى موقف الحساب، قال تعالى :**﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى**

رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: 51-54]

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: 41-45]

قال رسول الله ﷺ: "كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب، منه خلق، وفيه يركب "رواه أبو داوود

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "ما بين النفختين أربعون، ثم ينزل من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، وليس في الإنسان شيء إلا بَلي، إلا عظم واحد، وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة "رواه البخاري ومسلم

وقد دلت النصوص الصحيحة على أن أجساد الأنبياء لا يصيبها البلى والفناء الذي يصيب أجساد العباد، ففي الحديث **"إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء "رواه أبو داود**

كم بين النفختين: الصعق والموت ونفخة البعث والنشور؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ما بين النفختين أربعون ". فقالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت "

ما معنى أبيت؟ قال أبيت أن أسأل عن ذلك رسول اللـه فَعِلْم هذه الأربعين عند رب العالمين، وبعد الأربعين يأمر اللـه جل وعلا إسرافيل أن ينفخ في الصور النفخة الثانية.

من الذين عناهم الحق بالاستثناء في قوله: (إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ)؟

أخبرنا الباري جلَّ وعلا أن بعض من في السماوات ومن في الأرض لا يُصعقون عندما يُصعق من في السماوات ومن في الأرض ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68]

وقد اختلف العلماء في تعيين الذين عناهم الحق بالاستثناء في قوله: **(إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ)** والقول الأقوى ما ذهب إليه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أن المراد بهم الذين في الجنة من الحور العين والولدان.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الأولى بالمسلم التوقف في تعيين الذين استثناهم الله، لأنه لم يصح في ذلك نص يدل على المراد؛ قال ابن تيمية: "وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل ما استثناه الله، فإن الله أطلق في كتابه.. والنبي ﷺ قد توقف في موسى، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا؟ فإذا كان النبي ﷺ لم يُخْبَر بكل من استثنى الله، لم يمكننا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء، وأمثال ذلك مما لم يخبر الله به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر، والله أعلم. [1]

أول من تنشق عنه الأرض

أول من يبعث وتنشق عنه الأرض هو نبينا محمد ﷺ ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع.. وأول مشفع "(صحيح مسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "استب رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمد على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده، فلطم اليهودي، فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال: لا تُخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق، أو كان ممن استثنى الله عز وجل " رواه البخاري ومسلم، وفي رواية لهما: "... فإنه ينفخ في الصور،

---

[1] مجموع فتاوى شيخ الإسلام (4/261)

فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يبعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري: أحوسب بصعقة الطور، أم بعث قبلي؟ "

حشر الخلائق جَميعاً إلى الموقف العظيم

وأما صورة الخلق عند البعث، فإن القرآن عبر عنها بتعابير بليغة متوافقة: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ تدل على المفاجأة وسرعة الانتقال من الموت إلى الحياة، و ﴿**مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ**﴾ تدل على الإسراع في الخروج، و ﴿**فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ**﴾ تدل على انقيادهم الكامل لأمر الله، و ﴿**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا**﴾ تدل على كثرتهم وسرعة توجههم إلى المحشر.

فهذه الألفاظ إذا جُمعت أعطت صورة متكاملة للنشور: إحياء مفاجئ، ثم قيام، ثم خروج سريع، ثم سوق إلى الحساب.

وقد سمى الله يوم الدين بيوم الجمع، لأن الله يجمع العباد فيه جميعاً: ﴿**ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ**﴾ [هود: 103] وقدرة الله تحيط بالعباد، فالله لا يعجزه شيء، وحيثما هلك العباد فإن الله قادر على الإتيان بهم، حتى وإن غاروا في أعماق الأرض، وإن أكلتهم الطيور الجارحة أو الحيوانات المفترسة، أو أسماك البحار، أو غيبوا في قبورهم في الأرض، كل ذلك عند الله سواء.

وكما أن قدرة الله محيطة بعباده تأتي بهم حيثما كانوا، فكذلك علمه محيط بهم، فلا ينسى الله منهم أحدا، ولا يشذُّ منهم أحد، لقد أحصاهم خالقهم تبارك وتعالى، وعَدَّهم عداً ﴿**إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**﴾ [مريم: 93-95]

صِفَةُ حشر العبَاد

يحشر العباد حفاة عراة غرلاً، أي: غير مختونين، ففي الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: "إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً "ثم قرأ (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) [الأنبياء: 104].

وعندما سمعت عائشة الرسول ﷺ يقول: "يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً "قالت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: "يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض "متفق عليه.

كِسَوة العبَاد في يَوم المعَاد

بعد حشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلاً، يكسى العباد، فالصالحون يكسون الثياب الكريمة، والطالحون يسربلون بسرابيل القطران، ودروع الجرب، ونحوها من الملابس المنكرة الفظيعة.

وأول من يكسى من عباد الله نبي الله إبراهيم خليل الرحمن، **ففي صحيح البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل " والحكمة من تقديم إبراهيم عليه السلام في الكسوة: أنه لما أُلقي في النار جُرّد من ثيابه لله تعالى، فجازاه الله بأن جعله أول من يُكسى أمام الخلائق يوم القيامة.**
وأخرج البيهقي من طريق ابن عباس نحو حديث الباب وزاد: "وأول من يكسى من الجنة إبراهيم، يكسى حلة من الجنة، ويؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش، ثم يؤتى بي فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر "

ومعنى لا يقوم لها البشر: أي لنفاستها وعظم شأنها وحسنها وبهائها، لا يستقل بمثلها ولا يطيق حسنها وقيمتها أحد من البشر؛ إظهارا لفضل نبينا محمد ﷺ وكرامته العظمى على سائر الخلق.

الآثار الإيمانية والتربوية للآيات

1- اليقين بأن الموت حقيقة لا يستثنى منها أحد، ولا يستطيع أحد أن يدفعها عن نفسه مهما بلغ ماله أو علمه أو سلطانه.

2-من رحمة الله أنه أخفى عن الإنسان موعد موته؛ لأن معرفته الدقيقة قد تحول حياته إلى قلق متواصل، وتمنعه من الانتفاع بوقته والقيام بمسؤولياته.

3-وإخفاء موعد الموت يمنع الإنسان أيضا من تأجيل التوبة؛ فالإنسان لا يعلم متى ينتهي أجله، ولذلك ينبغي أن يكون مستعدًّا في كل وقت.

4-أرشدنا النبي ﷺ إلى الإكثار من ذكر هادم اللذات؛ لأن طول الأمل يجعل الإنسان يتعامل مع الدنيا كأنه مخلد فيها، فيؤجل التوبة، ويؤخر رد الحقوق، ويؤثر اللذة العاجلة على النجاة في الآخرة.

5-لم يأمر الإسلام اتباعه باعتزال الحياة أو ترك العمل والزواج والتجارة والتعلم، وإنما أمره أن يجعل الدنيا وسيلة للآخرة، وألا تتحول في قلبه إلى الغاية الكبرى.

6-ذكر الموت يدفع المؤمن إلى استثمار كل دقيقة في عمره؛ لأنه يدرك قيمة وقته، فلا يضيعه في الخصومات والتفاهات، بل يسعى إلى ترك أثر نافع وعمل صالح يبقى أجره بعد موته.

7-يسأل العبد في قبره عن ربه ودينه ونبيه. وليست الإجابة النافعة مجرد معلومات حُفظت باللسان، وإنما هي ثمرة إيمان عاشه الإنسان في الدنيا.

8-عندما تأتي سكرة الموت لا يستطيع الغني أن يشتري دقيقة إضافية، ولا يستطيع الملك أن يأمر ملك الموت بالانصراف، ولا يستطيع الطبيب أن يتجاوز الأجل الذي كتبه الله.

9-الله لا يحتاج إلى زمن طويل لجمع الأجساد أو البحث عن أصحابها، ولا يضيع منه من غرق في البحر أو احترق أو أكلته الدواب؛ لقد أحصى الخلق جميعًا، وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا.

10-يعالج المؤمن خوفه من الموت بثلاثة أمور: العمل الصالح والتوبة، وحسن الظن بالله، وترك الانشغال بتوقيت الموت وكيفيته.

11-ثم يأتي الإيمان بالنفخ في الصور والبعث ليؤكد أن الموت ليس فناءً، وإنما انتقال يعقبه قيام وحشر وحساب، ثم جنة أو نار؛ فالسعيد من تزود لذلك اليوم قبل أن تأتيه سكرة الموت.

المعنى الإجمالي للآيات:

1. الموت حقيقة حتمية لكل إنسان، ولا خلود لأحد في الدنيا، وهو بداية انتقال الإنسان إلى حياة البرزخ وانقطاع عمله الدنيوي.

2. المقصود من تذكر الموت ليس الحزن والكآبة، وإنما الاستعداد للقاء الله، ومحاسبة النفس: ماذا أعددت للآخرة؟

3. الآخرة سفر طويل يحتاج إلى زاد، وأعظم زاد يتزود به العبد هو التقوى والعمل الصالح.

4. من حكمة إخفاء موعد الموت رحمة الله بالإنسان؛ لأن معرفة موعد الوفاة قد تحول حياته إلى خوف وقلق دائمين، وأن يبقى العبد مستعدًا دائمًا، فيغتنم كل يوم في التوبة والطاعة والإقبال على الله.

5. عند حضور الموت لا ينفع مال ولا سلطان ولا طبيب في دفع الأجل إذا جاء أمر الله، ولذلك ينبغي ألا يغتر الإنسان بقوته أو دنياه.

6. الصور هو القرن الذي يُنفخ فيه عند قيام الساعة، والمشهور عند أهل العلم أن النافخ فيه هو إسرافيل عليه السلام، وهو مستعد لتلقي أمر الله.

7. الساعة لا تقوم على المؤمنين؛ بل يقبض الله أرواح المؤمنين بريح طيبة، ويبقى شرار الناس، وعليهم تقوم الساعة.

8. قيام الساعة يصاحبه انقلاب هائل في نظام الكون :تزلزل الأرض، وتنسف الجبال، وتتغير الشمس والكواكب والبحار، فيفزع الخلق فزعًا عظيمًا.

9. نفخة الصعق يموت بها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ويبقى الحي الذي لا يموت سبحانه.

10. بعد موت الجميع تأتي نفخة البعث والنشور، فيحيي الله الخلائق ويخرجون من قبورهم إلى الحساب.

11. البعث يكون سريعًا ومفاجئًا؛ يقوم الناس من قبورهم ويسرعون جميعًا إلى موقف الحساب، ولا يعجز الله عن جمع أحد مهما كان موضع موته أو فناء جسده.

****

الفصل السادس

مشهد العرض على اللّٰه

قال تعالى:

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: 21-26]

الفصل السادس

مشهد العرض والخصومة بين يدي الله

ما زلنا نعيش في رحاب سورة ق، وقد تطرقنا للعديد من قضايا العقيدة في هذه السورة المباركة، وتوقفنا عند الحديث عن القيامة الصغرى حينما يموت الإنسان، ومن مات قامت قيامته، ثم الحديث عن القيامة الكبرى ونهاية هذا الكون؛ عندما يأمر الله سبحانه وتعالى إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور أن ينفخ في الصور، فحينئذ يبعث من في السماوات ومن في الأرض، ثم يأمره فينفخ فيه أخرى فيبعث الخلق جميعا من قبورهم.

القيامة رأي عين:

القرآن الكريم فيه خاصية لن تجدها في أي كتاب آخر، لأن هذا كتاب يحرك القلوب، كتاب من رب العالمين جل جلاله الذي خلق الإنسان ويعلم ظاهره وباطنه؛ فهو حينما يتكلم عن مشهد من مشاهد يوم القيامة لا يجعلك قارئا أو مشاهدا للحدث، إنما يجعلك مشاركا داخل الحدث، فتقرأ الآيات وتعيشها وكأنها رأي عين.

يقول تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: 21]

وجاءت كل نفس، هل هي نفس البر والفاجر؟ قولان للعلماء:

الأول: كل نفس خلقها الله معها سائق يسوقها إلى الله، وشهيد من الملائكة يشهد بما عملت.

الثاني: أن الآية خاصة بالكافر الذي كان ينكر البعث لأن السياق هنا يتحدث عمن كانوا ينكرون البعث، ولذلك قال بعدها: **(ذلك يوم الوعيد)**، فالمؤمنون يكرمون بأنهم يساقون إلى الجنة وفدا كراما، كما قال تعالى: **(يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا)** [سورة مريم الآية 85] أما المجرمون فإنهم يساقون إلى جهنم دفعا بغلظة، **قال تعالى: (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا)** [سورة الطور الآية 13]

وجاءت كل نفس معها سائق يسوقها إلى الله، وشهيد يشهد على ما عملت.

هذا الشهيد من الملائكة، من هو؟ ثلاثة أقوال للعلماء:

1- هو القرين من الملائكة.

2- هو أحد الملائكة الكتبة.

3- هو ملك مخصص لهذا المشهد؟

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22]

(لقد كنت) أي في الدنيا.

(في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك) شبّه الغفلة وكأنها غطاء على العين بحيث لا يرى الكافر أن بعد الموت حياة أخرى، وبعد الدنيا دارا آخرة وحسابا وجزاء، يجازي الله الناس على أعمالهم، فهو في غطاء لا يرى شيئا.

كشف الآن الغطاء، ما كان غيبا صار رأي عين، يراه بعينه الآن، فيرى جميع الخلق إنسا وجنا وملائكة، وينكشف له ما كان غائبًا عنه من حقائق البعث والحشر والجزاء .

ومعنى (فبصرك اليوم حديد)، البصر الحديد هو البصر القوي النافذ، أي لم يعد هناك سبب من أسباب الضعف أو الإنكار، فبصرك اليوم قوي نافذ يرى ما كان محجوبا عنك.

والمعنى: فقد شاهدت البعث والحشر والجزاء، فإنهم كانوا ينكرون ذلك كله

عدل الله يوم القيامة

والله سبحانه وتعالى هو الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وهو سبحانه قادر على أن يحاسب العباد جميعا، وهو يعلم من المؤمن ومن الكافر، ومن المحسن ومن المسيء، لكنه جل في علاه يريد أن يقيم العدل التام بين عباده يوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئا، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ**

مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40] فالله تعالى يعقد الحساب يوم القيامة لإقامة عدله، وإقامة الحجة على العباد.

شهود يوم القيامة

والشهود يوم القيامة خمسة:

1. **فأول شاهد هو الله رب العالمين.**
2. **ثم الملائكة الكتبة الذين يسجلون أعمال العباد.**
3. **ثم الرسل الكرام.**
4. **ثم الأرض ومعالم الأرض.**
5. **ثم الجوارح.**

هؤلاء هم الأشهاد يشهدون يوم القيامة لإقامة عدل الله جل وعلا على جميع الخلق، فلا يبقى لذي عذر عذرا.

الشاهد الأول الله سبحانه وتعالى

أول شاهد هو الله، وهو خير الشاهدين، وكفى بالله شهيدا، ومن أسمائه العليم الذي يعلم كل شيء، وعلمه محيط بكل شيء، وهو خبير يعلم بواطن الأمور وخفاياها، وهو شهيد يعلم ظواهرها، يسمع ويرى، لا يخفى عليه شيء، جل جلاله، **قال تعالى:** ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: 5]**وقال تعالى عن المنافقين:** ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: 108] وقال جل فى علاه فى اطلاعه على أعمال عباده: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]، **وأخبرنا تعالى أنه لا يغيب عنه شيء في هذه الدنيا سرا أو علانية، فقال:**

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 7]

أي شهيد من البشر قد ينسى أو يجهل أو يضل أو يكذب أو يزور، أما الله جل جلاله فهو خير الشاهدين، يسمع ويرى، ويعلم ظواهر الأمور وبواطنها، ولا يخفى عليه شيء.

فأول الشاهدين هو رب العالمين، وكفى بالله شهيدا.

الشاهد الثاني الملائكة

وقد فصلنا القول في ذلك في الآيات السابقة عند قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 17-18]

فتسجل الأعمال في الصحف لا لأن الله ينسى، حاشاه جل في علاه، وإنما لإقامة الحجة على العباد، فإذا نشرت الصحف ضج المجرمون وقالوا: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49]

الشاهد الثالث: الرسل الكرام

أرسل الله رسله بالهدى ودين الحق لإقامة الحجة على العباد، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 47] **وقال تعالى:** ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41]

وهذا المشهد جعل رسول الله ﷺ يبكي حينما طلب من ابن مسعود أن يقرأ عليه القرآن، قال: أأقرأ عليك وعليك أنزل، قال: إني أحب أن أسمعه من غيري، فافتتح

بسورة النساء حتى إذا بلغ هذه الآية: أشار إليه النبي ﷺ فقال: حسبك، فإذا عيناه تذرفان.

لماذا بكى رسول الله ﷺ؟ بكى إجلالا وهيبة للعرض على الله، فبكى رسول الله هيبة وإجلالا لعظمة الله حينما يوقف، وهو رسول الله، وخير خلق الله، فيسأل عن أمته ويشهد بما لها وما عليها.

أيضا بكى رسول الله رقة على أمته حينما يوقف بين يدي الله، وهو ﷺ الرؤوف الرحيم، الذي ابتعثه الله تعالى رحمة للعالمين، فيشهد لمؤمنهم ويشهد على كافرهم، فبكى رسول الله رقة على أمته، صلوات ربي وتسليماته عليه.

نوح وقومه:

وقد أخبرنا النبي ﷺ عن نبي الله نوح، وأنه يوقف بين يدي الله فيسأل، فقد ثبت في **صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ) :يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب! فيقول: هل بلغت؟ فيقول :نعم، فيقال لأمته :هل بلغكم؟ فيقولون :ما أتانا من نذير، فيقول الله سبحانه وتعالى لنوح عليه السلام :من يشهد لك؟ فيقول نوح عليه السلام :محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله عز وجل :﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]** من أين ستشهد هذه الأمة أن نوحاً بلغ؟! لأنهم يؤمنون بالقرآن، والقرآن حكى لنا أن نوحاً عليه السلام بلغ أمته.[1]

وقوف عيسى عليه السلام بين يدي الله: أيضا ذكرت لنا سورة المائدة أن الله تعالى سيوقف عيسى ابن مريم بين يديه يوم القيامة:**﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ**

---

[1] في رواية ابن المبارك :ستقول فيكم الأمم: كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟! فيقول لهم الرب سبحانه وتعالى-أي للمسلمين-: كيف تشهدون على من لم تدركوا؟ فيقولون :ربنا بعثت إلينا رسولاً، وأنزلت إلينا عهدك وكتابك، وقصصت علينا أنهم قد بلغوا، فشهدنا بما عهدت إلينا، فيقول الرب :صدقوا، فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143] أخرجها الطبري في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، وكذلك ابن المبارك في *الزهد* (1598)، وهي رواية ضعيفة مرسلة، لكن أصل القصة ومعناها صحيح ثابت؛ كما في رواية البخاري

قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 116-118]

وهكذا يوقف الرسل، كل رسول يقدم أمته، فيشهد بما بلغ، ويقيم الحجة على قومه.

الشاهد الرابع الأرض

فالأرض تشهد بما يجري فيها وعليها، كما في قول الحق تبارك وتعالى: (﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: 1-4] **قال رسول الله ﷺ: أتدرون ما أخبارها؟ فإنها تشهد على كل عبد وأمة بما فعل فيها، تقول: فعل كذا يوم كذا.) أخرجه الترمذي في سننه.**

فالأرض تشهد إما بخير أو بشر، إما بطاعة وإما بمعصية.

ولما أهلك الله فرعون وجنده قال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان: 29]

هل الآية هنا على الحقيقة أم المجاز؟

هل السماوات والأرض تبكيان فعلا أم أن هذا مجاز؟ ثلاثة أقوال للعلماء:

الأول: أن هذا معنى حقيقي، لأن أي إنسان يموت يبكي عليه أحبابه حزنا عليه؛ **وقد ورد أثر عن علي بن أبي طالب: أنه ما من مؤمن يموت إلا وبكى عليه موضعان، موضع سجوده في الأرض، وموضع نزول رزقه من السماء، لكن هذا الأثر ضعيف غير صحيح.**

القول الثاني: تأويل الآية على تقدير حذف مضاف: فما بكى عليهم أحد من أهل السماء أو من أهل الأرض، لا الملائكة ولا الإنس والجن، الكل فرح لهلاك هذا الطاغية.

القول الثالث: أن هذا مجاز عقلي في اللغة العربية، أن يسند الفعل إلى من يستحيل أن يفعله من باب المبالغة، فلو أن السماوات والأرض تهيأ لهما أن تبكيا فلن تبكيا على هذا الظالم الطاغية، لأنه لما هلك استراح العباد من شره.

وهذا ما قاله السلف قديما: من أحبه كل الناس فهو منافق، ومن كرهه كل الناس فهو فاجر

من أحبه كل الناس، كل الناس أهل الحق والباطل والإيمان والكفر، معناه أنه منافق، إما أنه على الحق وينافق أهل الباطل، وإما أنه على الباطل وينافق أهل الحق، ثم من كرهه كل الناس، التقي والفاجر والمؤمن والكافر، فهذا فاجر، لأن أذاه عم جميع الخلق.

إذن فالأرض ستشهد بما جرى عليها، ولذلك كان علماؤنا يقولون: إذا عصيت الله في مكان فأطع الله فيه، إذا عصيت الله سرا فأطع الله سرا، فإنك بذلك تطهر نفسك من هذا الذنب، كما علمنا رسول الله ﷺ: واتبع السيئة الحسنة، لأن الحسنة تمحو السيئة.

الشاهد الخامس والأخير الجوارح

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24]
يأتي الكافر يوم القيامة فينكر ما كتبته الملائكة وسطرته في الصحائف، وينكر أنه قد جاءه الرسل، وينكر كل الشهود.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ

اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: 19-23]

عن أنس – رضي الله عنه – قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: (هل تدرون مما أضحك)؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. فقال:(من مخاطبة العبد ربه، يقول يا رب! ألم تجرني من الظلم)؟ قال: يقول: بلى.

فقال:(فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني). فقال: فيقول :(كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا). فقال: (فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي) قال: فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام. قال: فيقول: بعدا لكن وسحقا، فعنكن كنت أناضل .رواه مسلم.

وقول النبي ﷺ: (ثم يخلى بينه وبين الكلام) أي يعاد إليه التحكم في أعضائه، فيقول سحقا لكنّ و هلاكا لكنّ، فعنكن كنت أناضل، أي كان ينغمس في الملذات والشهوات والبغي والظلم ليمتع جوارحه، فيقع في اللذة الكاذبة، ويعصي الله عز وجل، ويمني نفسه ألا حساب ولا جزاء.

هؤلاء هم الشهود الخمسة:

الله جل جلاله، رسل الله الكرام، الملائكة الكتبة الأطهار، ثم الأرض ومعالمها، ثم الجوارح.

كل هؤلاء يشهدون لك أو عليك، والله خير الشاهدين، نسأل الله أن يسترنا بستره، وأن يختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين، وأن يسترنا في الدنيا والآخرة، اللهم آمين.

الآثار الإيمانية والتربوية للآيات

1- الإيمان بالبعث، فلا يبقى المؤمن غافلًا عن الغاية من وجوده، ويعلم أن الموت انتقال إلى مرحلة تظهر فيها ثمرة أعماله فيستعد لذلك بالإيمان الصادق والطاعة، ويحرص على أن يكون زاده صالحًا.

2- الإيمان بالآخرة يظهر أثره في حياة الإنسان اليومية، فمن استحضر الحساب راقب تصرفاته، وأدى الأمانات، وحفظ حقوق الآخرين، ويمنعه هذا الإيمان من استغلال غياب الرقابة البشرية لارتكاب الظلم أو الخيانة.

3- الإيمان بعلم الله الشامل يجعل العبد يدرك أن الله لا يخفى عليه شيء؛ ومن أيقن أن الله يراه لم يجعل استتاره عن الخلق مبررًا لفعل المحرمات؛ بل يذكر أن علم الله محيط به في بيته وعمله وسائر أحواله، وتدفعه هذه المراقبة إلى ترك معصية تيسرت له، وفعل طاعة لا يعلم بها غير ربه.

4- الاطمئنان إلى كمال عدل الله؛ فلا يعاقب الله أحدًا بغير حق، ولا يحمل إنسانًا وزر غيره، ولا يضيع عملًا صالحًا، وهذا اليقين يملأ القلب ثقة بحكم الله، ورد المظالم، والحقوق.

5- كتابة الملائكة للأقوال تجعل المؤمن واعيًا بأن كلامه له او عليه؛ فالكلمة قد تجبر خاطرًا، وقد تجرح إنسانًا أو تنشر باطلًا أو تفسد علاقة، ولهذا يتثبت قبل الحديث والنقل، ويحفظ لسانه من الكذب والغيبة والبهتان، ويشمل ذلك ما يكتبه وينشره عبر وسائل التواصل، ويتعلم أن حسن الكلام والصمت عن الشر عبادتان تحتاجان إلى مجاهدة مستمرة.

6- يعرض القرآن مشاهد الآخرة عرضًا يوقظ المشاعر ويدعو القلب إلى التفاعل، ويتأمل مواضع الخوف والرجاء، ويقتدي بالنبي في التأثر بكلام الله والخشوع عند سماعه وتلاوته؛ فيصبح هذا التدبر مصدرًا للهداية وإصلاح السلوك، ويظهر أثرها بعد انتهاء التلاوة.

7- استحضار هول العرض يعرف الإنسان بحاجته إلى رحمة الله وتوفيقه وستره؛ فيكثر من الدعاء بالمغفرة والثبات وصلاح القلب وحسن الخاتمة، ويقرن دعاءه بالأخذ بأسباب الاستقامة وأداء الفرائض واجتناب المظالم، ولا يعتمد على عمله اعتماد إعجاب، بل يرجو قبول الله وفضله، ويحرص على أن يعيش في طاعته، راجيًا أن يلقاه وهو راض عنه.

من هداية الآيات:

1. اليقين بالبعث والحساب، وأن ما هو غيب اليوم سيصبح يوم القيامة حقيقةً مشاهدةً رأي العين.

2. استحضار مشاهد الآخرة من أعظم ما يوقظ القلب من الغفلة؛ فالقرآن يعرض مشاهد القيامة عرضًا يجعل المؤمن يعيشها بقلبه وكأنه يشاهدها.

3.كل إنسان موقوف بين يدي الله ومحاسب على عمله، فلا ينبغي أن تشغله الدنيا عن الاستعداد لذلك الموقف العظيم.

4.كمال عدل الله تعالى يوم القيامة؛ فلا يظلم أحدًا مثقال ذرة، وإنما يقيم الحساب والحجج والشهود إظهارًا لعدله سبحانه.

5.وجوب مراقبة الله في السر والعلن؛ فالله سبحانه يعلم الظاهر والباطن، وما يخفيه العبد عن الناس لا يخفى عليه.

6.خطورة الذنوب ولو فعلت في الخفاء؛ فالأرض التي يُعصى الله عليها والجوارح التي تُرتكب بها المعصية تكون من الشهود يوم القيامة.

7.شرف أمة محمد ﷺ؛ إذ جعلها الله شاهدة على الأمم السابقة بما أخبرها به الوحي من تبليغ رسلهم.

****

الفصل السابع

القرين والخصومة يوم القيامة

قال تعالى:

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: 27-29]

الفصل السابع

القرين والخصومة يوم القيامة

قال تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: 23]

قبل التعرض لتفسير الآيات الكريمة نبين أولا من هو القرين؟

القرين في اللغة: بمعني الصاحب والشريك في الأمر، ومن هذا المعنى تسمى الزوجة قرينة لزوجها، ويسمى الصاحب القريب جداً منك قرين؛ هذا قرينك أي ملازمك وصاحبك.

حقيقة القرين في الشرع

من الناحية الشرعية القرين هو إما ملك من الملائكة مرافق ومصاحب لك إلى أن تموت، أو شيطان من الشياطين.

وقد جاء ذكر القرين في آيات وأحاديث نذكرها هنا للفائدة:

أولا/ ما جاء في القرآن:

1- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: 38]

في هذه الآية يخبر الله عن المرائين في الإنفاق الذين ينفقون رياء طلبا لمحمدة الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومن يكن الشيطان له خليلاً وصاحبا يعمل بطاعته ويتبع أمره ويترك أمر الله بإنفاقه ماله رئاء الناس في غير طاعته، وجحوده وحدانية الله والبعث بعد الممات فساء الشيطان قرينا.

2- وقال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: 25] أي : وقضينا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق قُرَنَاءَ من الشياطين ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: 83] أي تزعجهم إلى المعاصي وتحثهم عليها، بسبب ما زينوا (**لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا**

خَلْفَهُمْ) فالدنيا زخرفوها بأعينهم، ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا ، فأقدموا على معاصي الله، وسلكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسله والتكذيب بالآخرة، وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجحودهم الحق.

3- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36]

العَشَا هو ضعفُ البصرِ يقولون، العمى هو عدمُ البصرِ، والعَشَا ضعفٌ، والمعنى: ومن يُعرِضُ عن الذِّكر الَّذي أنزلَ الرحمن وهو القرآنُ، نُسلِّطُ عليه شيطاناً {**فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**} يُلازمُه.

4- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: 23]

والمراد بقرينه في هذه الآية الملك الموكل بكتابه ما يصدر عن الإنسان في حياته، وجاء به مفردا مع أن لكل إنسان قرينين (ملك الحسنات وملك السيئات) لأن المراد به اسم الجنس (أي جنس الملائكة) أو أن الحديث هنا عن ملك واحد لأن الحديث عن الإنسان الكافر فلم يسجل له إلا السيئات؛ ما له حسنات لأنه ليس مع الكفر طاعة؛ فالذي يتكلم الآن لإقامة الحجة كشاهد إثبات على الكافر في أعماله هو ملك السيئات؛ فقال: يا ربي هذا ما لدي عتيد. أي كنت شاهداً وحاضراً وقد سجلت كل شيء فعله.

وقوله: (هذا ما لدي عتيد) أي هذا الكتاب الذي وكلتني بحفظه والذي كتب فيه كل ما فعله هذا العبد، هذا ما لدي عتيد أي حاضر تام مضبوط، أو هذا ما وكلتني بإحضاره إشارة إلى الإنسان من بني آدم هذا ما وكلتني بإحضاره ها أنا جئت به حاضراً أمامك بهيئته.

5- وقال: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: 27]

قرينه هنا الشيطان الذي وُكِّل به؛ فيتبرأ منه شيطانه فيقول: **(ربنا ما أطغيته)** أي: ما أضللتُه؛ بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحقّ.

أما ورد في السنة:

1- عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ (ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله؟

قال وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير.)

وفي رواية: (وقد وكِّل به قرينُه من الجنِّ وقرينُه من الملائكة) أخرجه مسلم

2- عن عائشة -رضى الله عنها-أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلا قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع فقال: (ما لك يا عائشة أغرت؟ فقلت: وما لي لا يغار مثلى على مثلك، فقال رسول الله ﷺ أقد جاءك شيطانك؟ قالت: يا رسول الله أو معي شيطان؟ قال: نعم ومع كل إنسان؟ قال: نعم، قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: نعم ولكن ربى أعانني عليه حتى أسلم) أخرجه مسلم

هل أسلم قرين النبي ﷺ؟ العلماء لهم قولان:

الأول: منهم من قال "فأسلمُ" بالضم أي فأسلمُ أنا من شره أو أسلمُ من وسوسته، لأن الشيطان لا حظ له مع الأنبياء والمرسلين.

القول الثاني: قالوا "فأسلمَ" فعل ماض بمعنى هو الذي أسلم أي دخل الإسلام لأن الرسول قال بعدها **"فلا يأمرني إلا بخير"** والشيطان لا يأمر بخير، فلو بقي على شيطانيته ما أمر النبي بخير؛ إذاً فمعنى أسلم أي دخل الإسلام.

هل معنى هذا أنه من الممكن أن يكون القرين مسلماً؟ أو أن يكون كافراً؟

أي نعم، وقد ورد هذا واضحا بينا في سورة الجن وفي الآيات قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: 13-15] **إذاً ممكن أن يسلم كما قال النبي ﷺ.**

3- وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال (إذا كان أحدكم يصلِّي فلا يدع أحداً يمرُّ بين يديه، فإن أبى فليقاتلْه فإن معه القرين) أخرجه البخاري ومسلم

4- وعن عبد الله بن مسعود (إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان، فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك؛ فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك، فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى، فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268] [1]

وقوله: (لَمَّة) من الإلمام ومعناه النزول والقرب والإصابة، والمراد بها ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو المَلَك.

وقوله: (إيعاد بالشر) كالكفر والفسق والظلم.

(وتكذيب بالحق) أي في حق الله أو حق الخلق أو تكذيب بالأمر الثابت كالتوحيد والنبوة والبعث والقيامة والنار والجنة.

وقوله (وأما لمة الملك فإيعاد بالخير) كالصلاة والصوم.

(وتصديق بالحق) ككتب الله ورسوله.

وقوله (فمن وجد) أي في نفسه أو أدرك وعرف **(ذلك)** أي لمّة الملك.

(فليعلم أنه من الله) أي منّة ونعمة عظيمة واصلة إليه ونازلة عليه إذْ أمَر الملك بأن يلهمه.

(فليحمد الله) أي على هذه النعمة الجليلة حيث أهَّله لهداية الملك ودلالته على ذلك الخير.

(ومن وجد الأخرى) أي لمّة الشيطان.

ثم قرأ الآية: (الشيطان يعدكم الفقر) أي يخوفكم به ليمنعكم عن الإنفاق في وجوه الخيرات (ويأمركم بالفحشاء) أي المعاصي.

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه وأخرجه أحمد في المسند، وصحح الشيخ أحمد شاكر أنه موقوف له حكم الرفع فإن هذا الحديث مما لا يعلم بالرأي، ولا يدخله القياس، فلا يعلم إلا بالوحي من المعصوم ﷺ؛ فالروايات الموقوفة لفظا، هي مرفوعة حكما.

فكل إنسان معه قرينه من الملائكة وقرينه من الشياطين، فالمؤمن بطاعته لله ورسوله والاستقامة على دين الله يقهر شيطانه، ويذله ويهينه، حتى يكون ضعيفاً لا يستطيع أن يغالب، ويمنع المؤمن من الخير.

والمؤمن العاصي بسبب معاصيه وسيئاته يعين شيطانه، حتى يقوى على مساعدته على الباطل، وعلى تشجيعه على الباطل.

وهذا الأمر قدره الله تعالى ابتلاءً لبني آدم لأن الجنة ليست بالشيء السهل، وليست ادعاءً يدعيه الإنسان؛ فأنت أمام تكاليف شرعية تتنازعك فيها غرائز وشهوات، وفتن، واختبارات، وابتلاءات؛ فمن باب العدل الإلهي جعل الله لك ملكاً يدلك يلهمك يرشدك يبين لك زاوية الخير، وشيطان يزين لك المعصية.

مثال: أنت الآن تستمع لصوت المنبه لصلاة الفجر ستجد بداخلك صوتاً يقول لك: قم، فهذه فريضة، وأدِّ صلاة الفجر التي أوجبها الله عليك؛ أجرها كذا وثوابها كذا. **"بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"**.

ثم تجد داعي الهوى: أنت مثقل ومتعب ولم تنم إلا متأخراً ويومك غداً طويل وعندك أعمال كثيرة نم.

مثال آخر: من أبواب الإنفاق تصدق الصدقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف الصدقة جزاؤها ثوابها رضا الله البركة يخلف الله عليك. الشيطان: وماذا تفعل بالفواتير؟ عليك فواتير وعليك أقساط والأسعار في ارتفاع وأولادك أولى وأنت لست من أهل الزكاة ويكفي ما أنفقت في رمضان و... و... هذه فتن.

كيف يغلب الخير على الشر؟

لما سئل أحد العلماء: إن بداخلي ذئبان يتصارعان أحدهما يدعوني إلى خير والآخر يدعوني إلى شر من سيغلب؟ قال: من تطعمه.

ما الذي يطعم الملك ويقويه؟ وما الذي يطعم الشيطان ويقويه؟

كلمة يطعم ليس على الحقيقة (لأن الملائكة لا تأكل) إنما المقصود من الذي له موقف معك وقلبك يستقبل بطريقة أعلى وأفضل؟

إذا كنت مقبلاً على الله فإن حظك من التوفيق والهداية والإعانة أكبر.

وإذا كنت معرضاً عن الله كان حظك من حياطة الشياطين واقترانهم بك أكبر.

سلطان الشيطان على من؟ قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 98-100] السلطان هنا بمعنى التأثير لأن السلطان إما سلطان بالقوة كالحكومات والرؤساء، وإما سلطان بالحجة وهذا معنى: **{فَأْتُونِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} [سورة الصافات: 156]** فالشيطان متى تكون له حجة قوية وقبول عندك في القلب؟ **{إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ} [سورة النحل: 100]** هل في القلب استعداد لاستقبال الفتنة وحب للفتنة وتعلق بالفتنة؟ كما قال الله عن بني إسرائيل: **{وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ} [سورة البقرة: 93]** **فهؤلاء القوم** أول ما عرض عليهم السامري الفتنة استجابوا لها ... قال: إنكم أخذتم ذهب المصريين وهذا الذهب حرام عليكم ولا يجوز لكم أن تبقوه معكم ماذا نفعل؟ قال: سأحوله لكم إلى صورة للإله الذي ذهب موسى ليناجيه وصهر الذهب في سبيكة وشكله على شكل عجل وقال: **{هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ} [سورة طه: 88].** فبعض القلوب عندها تعلق بالفتنة، وإقبال عليها، وتسعد بها هذا هو محل الشيطان.

قال الله تعالى عن هذا الصنف: **{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [سورة المجادلة: 19].**

وكل واقع في الضلالة حوله شياطين يحضونه على هذا الفعل بل ويوحون إليه بالضلال والباطل كما قال تعالى: **{وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} [سورة الأنعام: 121].** وقال تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [سورة الأنعام: 112]** وقال: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} [سورة مريم: 83].**

الأز هو الدفع بقوة وشدة، وتغريهم إغراءً بالشر والمعاصي. الشياطين تحرك الكافرين وتحثهم وتدفعهم بسرعة نحو المعاصي يلح عليه فيدفعه وكأنه يساق سوقاً إلى البغي إلى الظلم إلى أكل الحرام إلى الوقوع في الزنا أو شرب الخمر فتؤزهم الشياطين أي تدفعهم دفعاً.

نجاة المتقين بالاستعاذة والذكر

أما عباد الله المتقين فإنهم إذا أصابهم طائف من الشيطان كما قال الله: **{تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} [سورة الأعراف: 201].**

وقال رسول الله ﷺ: "الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِذَا ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ وَإِذَا غَفَلَ وَسْوَسَ"[والحديث ضعيف مرفوعا عن أنس، وسنده صحيح موقوفا من قول ابن عباس]

القلب أشبه بقبضة اليد والشيطان جاثم عليه؛ فإذا ذكر المسلم الله خنس الشيطان، والخنوس أي التضاؤل إلى حد الاختفاء وإذا غفل وسوس.

الغفلة مدخل الشيطان

أكثر موضع يؤثر فيه الشيطان على الإنسان أن يكون في غفلة بعيدا عن الله... بعيدا عن الصلاة بعيدا عن الوضوء بعيدا عن الصالحين بعيدا عن القرآن... فطالما أنه بعيد عن كل هؤلاء فإنه يكون قريباً من الشياطين.

وهذا ما قاله الرسول ﷺ: "عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةِ"

الذئب لما يأتي إلى قطيع كبير فيه غنم لا يأكل من قلب الغنم حتى لا يتعرض لأذى الكلب أو الراعي؛ إنما يأكل من الغنمة الشاردة البعيدة؛ هكذا الشياطين والعياذ بالله.

إذن فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق.

التحذير من الأوهام

هناك مسألة أريد أن ألفت الأنظار إليها وهي: أن القرين من الجن غيب؛ وبعض الناس الآن يكتبون على وسائل التواصل: كيف تتكلم مع القرين؟ كيف تستحضر القرين؟ كيف تدعو القرين للإسلام؟

هذه كلها أوهام وعناوين فقط "للترند" مداعبة لخيال الناس لا أكثر ولا أقل.

فالشيطان ليس من دورك أن تدعوه للإسلام ولا أن تقيم عليه الحجة؛ هذا عالم آخر ليس عالمك؛ فلا استحضار ولا استنطاق ولا أي شيء من هذه الخزعبلات الموجودة حالياً لما يسمى بالمعالج الروحاني.

علاج الوسواس القهري

هل القرين له تأثير عليّ؟ نعم إذا كنت بعيداً عن الله فتأثيره بالوسوسة فقط، والوسوسة قد تكون بالشر والمعصية، وقد تكون بما يعرف بالوسواس القهري أو ليسبب لك القلق والتوتر.[1]

ما هو العلاج؟

العلاج في الأذكار التي تعلمناها من النبي ﷺ والتي تدفع عنك الشيطان وأسهلها قول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

أيضاً المعوذات الإخلاص والفلق والناس، وقد علمنا الرسول ﷺ أن نقرأها ثلاث مرات إذا أصبحنا وإذا أمسينا.

فإذا جاءك وسوسة في العقيدة، أو وسواس في الإيمان، أو وسواس بالانتحار؛ فاطرد هذه الأوهام لا تنشغل بها لا تسترسل فيها، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وافعل كما أوصى النبي الصحابة، تلتفت على يسارك وتتفل ثلاثاً ثم تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم انتهى الأمر.

عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له لما اشتكى وسوسة الشيطان: "ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهُ وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا". أخرجه مسلم

---

[1] والوساوس قد تكون من وسوسة الشيطان، خاصة المرتبطة بالعقيدة والإيمان ووسواس الطهارة والنجاسة والشك الدائم في العبادات، وقد تكون أفكارًا قهرية مرتبطة باضطراب نفسي معروف عند الأطباء المختصين؛ فلا ينبغي نسبة كل وسواس قهري إلى الشيطان، ومن كان يعاني اضطرابًا شديدًا متكررًا فعليه أن يجمع بين الأذكار والأسباب الشرعية وبين الاستعانة بأهل الاختصاص النفسي من الأطباء.

ولا تسترسل في الهواجس والأفكار، ولا تبقى دائماً في أسر الشيطان بوساوسه القهرية، وافتراضاته الوهمية؛ كما ورد في الآية: **{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [سورة البقرة: الآية 268]**

وبعض العلماء المتخصصين في الرقية الشرعية قالوا: عند كثرة الوساوس تقرأ سورة ق، وقالوا إنها مجربة في علاج تسلط القرين على الإنسان بالوساوس القهرية، فيقرأها كل ليلة مع سورة الملك، ويجعل الله تعالى فيها الشفاء.

ثم يقول تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: 24]

(ألقيا)هذا خطاب للسائق والشهيد؛ بدلالة قوله تعالى قبلها: **﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: 21]** فالسائق يسوقه إلى المحشر، والشهيد يشهد عليه بعمله، فيؤمران معا بإلقائه في النار.

ثم ذكر الحق تعالى ست صفات لهذا الملقى به في النار والعياذ بالله، وهي:

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: 24-26]

1- **كفار:** صيغة مبالغة أي كثير الكفر؛ فهو جاحد لنعم الله لا يشكرها، وجاحد لحقوقه، فلا يعبده، وجاحد لدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، وجاحد برسله وملائكته وكتبه وبلقائه يوم القيامة.

2- **عنيد:** هو شديد المعاندة للحق، معرض عنه، مصرٌّ على مخالفته فهو يعرف الحق ويتيقنه ثم يرفضه كبرا واستعلاء، وهذا أشد من الجهل لأن الجاهل قد يعذر أما المعاند فهو مكابر للحق.

3- **مناع للخير:** فهو لم يترك الخير بل كان يمنعه عن نفسه وعن غيره فهو لا يعمل الطاعات، ولا يقرب إلى الله، ولا يفتح باب خير لغيره بل يصد الناس عن الخير والإيمان والإحسان، فلا خير فيه لنفسه ولا للناس.

4- **معتد:** فمع كونه مانعا للخير، هو أيضا ظالم معتد يتجاوز الحدود فيؤذي الناس بيده ولسانه وماله وسلطانه، فهو يجمع بين السلبية في الخير، والإيجابية في الشر.

5- **مريب:** أي كثير الشك والريبة يعيش في الشبهات ويثيرها في غيره ولا يقف عند حد بل يأتي كل ما يوقع في الريبة والفساد فهو صاحب شك وسوء ظن بالله ودينه.

6- **مشرك:** أي لم يكتف بالكفر والعناد بل جعل مع الله إلها آخر يحبه كما يحب الله ويغضب له ويرضى له ويعظمه ويطيعه، ويقدمه على أمر الله في الولاء والبراء والنذر والحلف، والطاعة فصار الشرك متغلغلا في قلبه وسلوكه.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: 27]

في الآيات الكريمة ذكر للقرين مرتين:

كلام القرين في الموضع الأول وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ **[ق: 23]** هو كلام الملك الموكل به، يقول: هذا ما عندي لهذا العبد، وهذا ما سجلته عليه جاهز ومُعد.

وكلام القرين في الموضع الثاني من السورة هو الشيطان الذي كان يوسوس له: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ **[ق: 27]** يريد أنْ يتبرأ من صاحبه الضال ويتركه؛ بقوله: ربنا ما أطغيته، ولا أجبرته على الكفر والعصيان، وَلَٰكِن هو الذي كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ؛ دون أن أكرهه أنا على هذا الضلال أو الكفر.

هكذا الشيطان الذي أغوى الإنسان وزين له المعصية وحببه إليها وحببها إليه يتبرأ منه ويقول: يا رب ما كنت سبباً في طغيانه ولا معصيته، وإنما كان هو في ضلال بعيد... كان مستعداً للمعصية والغواية.... فكان عملي هو أن أزين له الغواية فاستجاب لي.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى لنا في سورة إبراهيم مشهد خطبة الشيطان في أهل جهنم: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ

وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22]

فيتبرأ إبليس من أتباعه ويقول لهم: ما أجبرتكم على شيء، ولا أكرهتكم على طاعتي، ولا أن تستجيبوا لكلامي، فلا تلوموني، ولوموا أنفسكم، لن أنقذكم اليوم من عذاب الله ولن تنقذوني من عذاب الله **(ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي)**

فالشيطان هنا بين يدي رب العزة يقول: **(ربنا ما أطغيته)** فيتبرأ القرين من صاحبه ويقرر أنه لم يجبره على الطغيان، وإنما دعاه وزين له فاستجاب، لكن من المعلوم أن: من حرض على المعصية، أو دعا إليها، أو زينها فهو شريك فيها، بل من حضر المعصية وأقرها فهو شريك فيها حتى وإن لم يفعلها، فالمحرض والمزين والمخطط والمسهل والفاعل كلهم في الإثم والجريمة سواء.

عَنِ العُرْسِ بْنِ عَمِيرَةَ الكِنْدِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِذَا عُمِلَتِ الخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا -وَقَالَ مَرَّةً: أَنْكَرَهَا- كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا" .رواه أبو داود وحسنه الألباني.

فيجيبهما تعالى بقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: 28]

لا تختصموا لدي لأن الخصومة لن تنفعكم اليوم فلا يلقي كُلٌّ منكم بالمسئولية على صاحبه، فأنا أعلم بكم، ولا يخفى عليّ من المطيع ومن العاصي؛ فلا فائدة إذن من هذه الخصومة.

(وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد) أي حذرتكم في الدنيا على ألسنة رسلي من سوء عاقبة الكفر، والآن لا مجال لهذا الاعتذار أو التخاصم.

قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: 29]

قوله: (مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ) فيه تفسيران:

التفسير الأول: أى: لا خلف لوعدي، ولا معقب لحكمي، بل هو كائن لا محالة، والوعد من الله هو: أنه وعد المؤمنين بالجنة وتوعد الكافرين بالنار.

فيكون المعنى: ما سبق من وعدي لأهل الجنة ووعيدي لأهل النار لن يُبدل.

فليس معنى أنكم استحققتم النار فوقفتم بين يدي تطلبون الشفقة والرحمة، أو يلقي كل واحد منكم باللوم على صاحبه أو على سيده أو على من زين له أني أبدل هذا الوعيد، فهو وعيد لا يتبدل.

ومن المعلوم لدينا أن رحمة الله تعالى يتعرض لها كل من مات على التوحيد حتى وإن قصر به عمله، أما من مات على الشرك فإن الله حرم عليه الجنة، قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [سورة النساء: الآية 48]** فمن جاء إلى الله تعالى بكل أصناف المعاصي والذنوب فهو واقع في خطر المشيئة: إن شاء الله عفا وإن شاء الله عذب، فإن عفا فبفضله وإن عذب فبعدله؛ وهذا لمن مات عاصياً وهو على التوحيد، أما من مات على الشرك والعياذ بالله فإنه لا تنفعه شفاعة الشافعين ولا يخفف عنهم من عذاب جهنم وما هم منها بمخرجين.

قال الله عز وجل: {إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [المائدة: 72] إذاً هذا قول حق من الإله الحق **{مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيْ}.**

التفسير الثاني: ما يغير القول عندي بالكذب والتلبيس؛ كما يغير عند الملوك والحكام، فيكون المراد قول المختصمين؛ لعلمه سبحانه بالغيب، وقد قال تبارك وتعالى: **"ما يبدل القول لدي"** ولم يقل "قولي"

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن المشركين حينما يقفون بين يدي الله يقسمون به ويقولون: **{وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}** [الأنعام: 23] يكذبون بعد عمر مديد في الشرك والمعصية والصد عن سبيل الله والعناد والمكابرة ثم يقسمون بالله كذباً ما كنا مشركين.

وتجد السادة والأتباع يتلاومون كل منهم يتبرأ من صاحبه؛ فالله سبحانه وتعالى يقول **{مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ}** أي أنه ليس معنى أن تكذبوا أو أن تغشوا أو أن تقسموا

بي كذباً أن أصدقكم ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: 18] نسأل الله العافية.

فمعنى {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ} أن القاضي من قضاة الدنيا من الممكن أن يقف الخصوم أو المتهمون أمامه، وعندهم وثائق مزورة، أو تزييف للحقائق، أو محامٍ عنده ثغرات يفهمها في القانون فيبدل ويغير ويتهم ويعكس القضية .... إلى آخره، والقاضي بشر لا يعرف إلا ما يراه من أدلة وقرائن وشهود، ولا يملك أن يقول للشهود أنتم شهود زور بدون بينة.

فهو يحاول أن يجمع الأدلة والقرائن ثم في النهاية هو بشر لا يملك أن يعرف البواطن والخبايا والخفايا.

من الذي لا يخفى عليه شيء؟

الله عز وجل، فقال لهم: **{مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ}** فمهما كذبتم ومهما غششتم، ومهما أقسمتم بي كذباً فإن كذبكم لا اعتبار له عندي **{مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ}.**

ومن الممكن أن نرى قاضيا من قضاة الدنيا يحكم في قضية ثم بعد ذلك يطعن المحامي ويقول ظهرت أدلة جديدة، ظهر شهود جدد، ظهر عيب في قرارات الاتهام أو في الحالة العقلية للمتهم!!!

فهذا القاضي الأول، ثم قد يستأنف هذا الحكم فيكون الحكم موقوفاً، وتُعاد المحاكمة مرة أخرى.

لكن هل يوم القيامة يوجد استئناف أو نقض؟

كلا، لأن الحقائق كلها والأدلة كلها مجتمعة يوم القيامة، الخصوم بين يدي الله الذي لا تخفى عليه خافية، العليم بذات الصدور، والذي يعلم ما تكنّه الأنفس وما تخفيه الضمائر، فلا يُبدل القول لديه: لا استئناف لحكمه، ولا معقب لقضائه كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: 41]

قوله: (وما أنا بظلام للعبيد) علماء السلف قالوا: من يظلم هو الناقص.

ما هو الظلم؟

الظلم هو أن تأخذ حق غيرك، أو تمنع حق غيرك؛ فلو أن لشخص مال عند آخر فمنعه منه فهو ظالم له، ولو أخذ مال غيره بالقوة أو بالغصب فهو ظالم.

هل الله عز وجل ينقصه شيء؟

سبحانه جل شأنه له الكمال، مالك الملك سبحانه لا ينقصه مال، ولا عز، ولا مكانة ولا سيادة؛ بيده خزائن كل شيء؛ فليس بناقص ليظلم، فلكمال قدرته ولعظم غناه وكمال غناه ولرفعته، وعزته جل شأنه؛ ترفّع عن الظلم فقال: **{مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}** [سورة ق: الآية 29] **وقال في الحديث القدسي:**

عَنْ أَبِي ذَرّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا...". رواه مسلم

معنى ذي الجلال والإكرام

من أسماء الله الحسنى ذو الجلال والإكرام: ذو الجلال معناها ذو العظمة، والعظمة والجلال لله سبحانه وتعالى عظمة دائمة ليست طارئة، ولا وصفاً مؤقتاً؛ إنما هي عظمة وجلال يليقان به دائماً أبداً، فلا يلحق هذا الجلال نقص، ولا ضعف، ولا شيخوخة، ولا فقر، ولا حاجة، ولا يليق به جل جلاله أن يتصف بصفة من صفات النقص، فهو العزيز دائماً أبداً، وهو القوي دائماً أبداً، وهو الغني دائماً أبداً، لم يلحق غناه فقر ولا يدركه إفلاس، وهو عليم لم يسبق علمه جهل ولا يلحقه نسيان، وهكذا في كل أسمائه وصفاته جل وعلا.

أيُّ ملك من ملوك الدنيا، ماذا كان قبل أن يصير ملكًا؟ كان طفلاً صغيراً لا حول له ولا قوة، يلهو ويلعب، ولما أصبح ملكاً فهو لا يزال بشرا يعتريه ما يعتري أي أحد من البشر، فهو يمرض ويضعف، ويموت.

فالله لكماله لا يظلم، لأنه لا يليق به أن يظلم، ولأنه ليس بحاجة إلى أن يظلم، لأنه المتصف بالكمال والجلال **{تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}** [الرحمن: 78].

الآثار الإيمانية والتربوية للآيات

1- استحضار مشهد العرض على الله تعالى؛ فكل نفس ستأتي منفردة، لا يصحبها مال ولا أهل ولا جاه، وإنما يصحبها من يسوقها إلى المحشر ومن يشهد عليها بما عملت، وهذا الاستحضار يوقظ القلب من غفلته، ويجعل العبد أكثر استعدادًا لذلك اليوم بالتوبة والعمل الصالح.

2- مشهد المتقين الذين يحشرون إلى الرحمن وفدًا مكرمين، ومشهد المجرمين الذين يدفعون إلى جهنم دفعًا؛ يغرس في القلب الخوف والرجاء معًا: الخوف من أن يكون العبد ممن يساقون إلى العذاب، والرجاء في أن يكون من وفد الرحمن المكرمين.

3- تبين الآيات أن أعظم ما يصيب الإنسان في الدنيا غفلة القلب؛ إذ قد يرى بعينيه آيات الله، ويسمع مواعظه، ومع ذلك يعيش كأن لا بعث ولا حساب، فالعاقل من كشف غطاء الغفلة عن قلبه قبل أن يكشف عنه يوم لا ينفع الندم.

4- ما كان غيبًا في الدنيا سيصير يوم القيامة مشاهدة ويقينًا لا يمكن إنكاره؛ فالبعث والحشر والحساب والجنة والنار حقائق ثابتة، وإن أنكرها المنكرون أو غفل عنها الغافلون، وهذا اليقين يمنح المؤمن قوة في مواجهة الشبهات، وثباتًا على الطاعة، وصبرًا على ما يلقاه في سبيل دينه.

5- قيام الشهود يوم القيامة يرسخ الإيمان بأن الله هو الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، فهو سبحانه يعلم أعمال العباد كلها، ومع ذلك يقيم عليهم الحجة، وتنشر الصحف، ويحضر الشهود، حتى يظهر عدله الكامل لجميع الخلق، وهذا يملأ قلب المظلوم طمأنينة؛ فحقه لن يضيع، كما يملأ قلب الظالم خوفًا؛ فلن تنفعه حيلة ولن يستطيع إخفاء جرمه.

6- الإنسان قد يعصي الله لإمتاع جوارحه، ثم تكون هذه الجوارح نفسها شهودًا عليه يوم القيامة، وهذا يكشف زيف اللذة المحرمة؛ فهي لذة عابرة يعقبها ندم وحسرة، والتربية الصحيحة تحمل النفس على مخالفة هواها العاجل طلبًا لنعيم أبقى وأكمل.

7- شهادة السمع والبصر والجلود والأيدي والأرجل تجعل المؤمن ينظر إلى جوارحه على أنها أمانات، لا أدوات مطلقة لتحقيق الشهوات، فيحفظ سمعه

من الحرام، وبصره من الخيانة، ولسانه من الكذب والغيبة، ويده من الظلم، وقدمه من السير إلى المعصية، ويستعملها فيما يقربه من الله.

8- إذا كانت الأرض تحفظ ما يقع عليها وتشهد به، فإن من التربية الإيمانية أن يتبع العبد السيئة الحسنة، وأن يطيع الله في الموضع الذي عصاه فيه، ويذكره في المكان الذي غفل عنه فيه، وليس المقصود مجرد تغيير المكان، وإنما تغيير الحال بالتوبة الصادقة والعمل الصالح؛ فالحسنات يذهبن السيئات.

9- تربي الآيات المؤمن على اغتنام بقية عمره؛ فهو ما دام في الدنيا يستطيع أن يستغفر مما مضى، ويصلح ما بقي، ويرد الحقوق، ويتحلل من المظالم، ويزيد من الحسنات.

المعنى الإجمالي للآيات:

1-الشيطان يوسوس ويزين ولا يجبر الإنسان على المعصية؛ ولذلك لا يستطيع العاصي يوم القيامة أن يجعل الشيطان عذرًا له، بل يتحمل الإنسان مسؤولية اختياره واستجابته.

2-الذكر والاستعاذة بالله من أعظم أسباب دفع وساوس الشيطان، فينبغي للمؤمن أن يلزم ذكر الله وألا يسترسل مع الوساوس والهواجس.

3-الحذر من الخرافات المتعلقة بالقرين؛ فهو من عالم الغيب، فلا يصح الانشغال بدعاوى استحضاره أو مخاطبته أو ما يروَّج له في هذا الباب.

4-من أخطر صفات أهل النار: الكفر والعناد ومنع الخير والاعتداء والريبة والشرك؛ وهي صفات ينبغي للمؤمن أن يفتش عن أصولها ومقدماتها في نفسه ويحذر منها.

5- صلاح الإنسان لا يقتصر على فعل الخير، بل يشمل عدم منع الآخرين منه؛ فمن صفات أهل النار المذكورة: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾.

6-المسلم مسؤول عن أثره في الآخرين؛ فالدعوة إلى المعصية وتزيينها وتسهيلها ليست أمرًا هينًا، كما أن الدلالة على الخير باب عظيم من أبواب الأجر.

7-أحكام الله يوم القيامة قائمة على العلم التام والعدل المطلق؛ فلا تخفى عليه حقيقة، ولا تنطلي عليه حجة مزيفة، ولا يحتاج حكمه إلى استئناف أو مراجعة.

8-كمال الله تعالى يقتضي تنزهه عن الظلم؛ فهو الغني الكامل الذي لا يحتاج إلى شيء من خلقه، وقد حرم الظلم على نفسه وحرمه بين عباده.

9- الدنيا هي دار العمل؛ فما دام الإنسان حيًّا فباب التوبة والاستغفار والعمل الصالح مفتوح، وهذه من أهم الرسائل العملية في مشاهد القيامة.

****

الفصل الثامن

مشهد الجنة والنار

قال تعالى:

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: 30-37]

الفصل الثامن

مشهد الجنة والنار

مقدمة عن النار:

النار هي الدار التي أعدها الله للكافرين به، والمتمردين على شرعه، والمكذبين لرسله. وهي دار عذابه الذي يعذب به أعداءه، وهي الخزي الأكبر والخسران العظيم؛ فلا خزي فوق خزيها، ولا خسران أعظم من خسران أهلها، كما قال تعالى حكاية عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: 192] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 63] وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: 15]

والنار شاسعة واسعة، بعيد قعرها، مترامية أطرافها؛ كما ورد في الحديث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله - ﷺ -، إذ سمع وَجْبَة (سقطة)، فقال النبي - ﷺ -: " تدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار إلى الآن ". رواه مسلم

فالنار ستستوعب هذه الأعداد الهائلة التي وجدت على امتداد الحياة الدنيا من الكفرة المجرمين، ويبقى فيها متسع لغيرهم وقد أخبرنا الله بهذه الحقيقة في سورة ق فقال:

{يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلِ مِن مَّزِيدٍ} [سورة ق: الآية 30]

وقد وصف الرسول - ﷺ - مجيء النار في يوم القيامة، فقال:

" يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك " رواه مسلم

والنار متفاوتة في شدة حرها، وما أعده الله من العذاب لأهلها، فليست درجة واحدة،

وقد قال الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145] [1]

وقد ورد عن بعض السلف أن عصاة الموحدين ممن يدخلون النار يكونون في الدرك الأعلى، ويكون في الدرك الثاني اليهود، وفي الدرك الثالث النصارى، وفي الدرك الرابع الصابئون، وفي الخامس المجوس، وفي السادس مشركو العرب، وفي السابع المنافقون.

ووقع في بعض الكتب تسمية هذه الدركات: فالأول جهنم، والثاني لظى، والثالث الحطمة، والرابع السعير، والخامس سقر، والسادس الجحيم، والسابع الهاوية.

ولم يصح تقسيم الناس في النار وفق هذا التقسيم، كما لم يصح تسمية دركات النار على النحو الذي ذكروه، والصحيح أن كل واحد من هذه الأسماء التي ذكروها: جهنم، لظى، الحطمة ... إلخ اسم علم للنار كلها، وليس لجزء من النار دون جزء، وصح أن الناس متفاوتون على قدر كفرهم وذنوبهم، وإذا كان هذا التقسيم اجتهاديا بحسب فقهنا للنصوص الدالة على شدة جرم الفرق المختلفة، فإن هذا الترتيب الذي ذكروه يحتاج إلى إعادة نظر، فالمجوس عباد النيران ليسوا بأقل جرماً من مشركي العرب، والأولى أن نسكت فيما سكتت عنه النصوص.

يقول تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلِ مِن مَّزِيدٍ} [سورة ق: الآية 30].

جَهَنَّم اسمٌ من أسماء النار التي أعدَّها الله للكافرين والعصاة، مأخوذة من معنى **البُعد والقعر الشديد**، ومن كلام العرب :بئرٌ جَهنَام أي **بعيدة القعر شديدة العمق**، واللافت أن معنى **العمق والبُعد** يتناسب مع ما ثبت في السنة من شدة عمق جهنم كما سبق في الحديث.

---

[1] والعرب تطلق: " الدرك " على كل ما تسافل، كما تطلق: " الدرج " على كل ما تعالى، فيقال: للجنة درجات وللنار دركات، وكلما ذهبت النار سفلاً كلما علا حرها واشتد لهيبها، والمنافقون لهم النصيب الأوفر من العذاب، ولذلك كانوا في الدرك الأسفل من النار.

وهذه الآية فسرها النبي ﷺ بأن جهنم فيها متسع لكل من يدخلها، كما أن الجنة فيها متسع لكل من يدخلها:

ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ. فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ}" رواه ابن ماجه في سننه، وصححه الألباني.

فمن عدل الله تعالى أن جعل مكاناً لكل عبد من عباده في الجنة، ومكاناً في النار، فالمؤمن إذا دخل الجنة أخذ مكانه، وورث مكان الكافر، والكافر إذا دخل النار أخذ مكانه وورث مكان المؤمن.

فالمجرمون المستحقون لعذاب الله يلقون في النار وفيها متسع لهؤلاء لتتم كلمة ربك كما في سورة السجدة: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ **[السجدة: 13]** فكلما ألقي فيها فوج من الكفار تطلب المزيد وتقول: هل من مزيد؟ أي أن فيها متسع وما زال فيها أماكن لم تمتلئ بعد.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة". أخرجه البخاري ومسلم.

وقوله: (**وتقول هل من مزيد**) يدل على عِظَم جهنم وسعتها، وأنها لا تمتلئ بمجرد إلقاء أهلها فيها.

ومعنى (حتى يضع رب العزة فيها قدمه) هذا من أحاديث الصفات، ومذهب السلف إثبات ما جاء في النص من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل؛ فنؤمن بأن لله تعالى قدمًا تليق بجلاله، ليست كأقدام المخلوقين، كما قال سبحانه:

﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ **[الشورى: 11]**

(فينزوي بعضها إلى بعض) ينزوي أي: ينضم وينقبض بعضها إلى بعض، فتجتمع أجزاؤها وتضيق، وحينئذ تمتلئ.

وهذا يبين أن امتلاء جهنم لا يكون لأن الله يخلق أناسًا ليعذبهم فيها؛ وإنما يدخلها من استحق دخولها، ثم يحقق الله وعده بملئها على الوجه الذي أخبر به سبحانه.

(وتقول: قط قط، بعزتك وكرمك) معناها :حسبي، حسبي، قد كفاني، أي قد امتلأت ولا أطلب مزيدًا.

وفي هذا إثبات أن الله سبحانه يُنطق جهنم حقيقة، ولا يمتنع ذلك على قدرته؛ فالذي أنطق الإنسان قادر على أن ينطق ما شاء من خلقه.

(ولا يزال في الجنة فضل) أي: بعدما يدخل أهل الجنة الجنة، يبقى فيها مكان زائد وسعة لم يسكنها أحد، فيخلق الله خلقًا جديدًا ويسكنهم الأماكن الباقية في الجنة، فضلًا منه ورحمة، أما النار :فلا يخلق الله خلقًا ليعذبهم فيها من غير ذنب؛ لأن الله تعالى لا يظلم أحدًا.

كثرة أهل النار

جاءت النصوص كثيرة وافرة دالة على كثرة من يدخل النار من بني آدم، وقلة من يدخل الجنة منهم، قال تعالى: **(ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) [سبأ: 20]. وقال تعالى لإبليس: (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) [ص: 85]** فكل من كفر فهو من أهل النار على كثرة من كفر من بني آدم.

ويدلك على كثرة الكفرة المشركين الذين رفضوا دعوة الرسل أن النبي يأتي في يوم القيامة ومعه الرهط، وهم جماعة دون العشرة، والنبي ومعه الرجل والرجلان، بل إن بعض الأنبياء يأتي وحيداً لم يؤمن به أحد.

في صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي - ﷺ - قال: " عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد.. "

وجاءت نصوص كثيرة تدل على أنه يدخل في النار من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من كل ألف، وواحد فقط هو الذي يدخل الجنة.

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: " يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، ثم يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات

حمل حملها، وترى الناس سكرى وما هم بسكرى، ولكن عذاب الله شديد. فاشتد ذلك عليهم فقالوا: يا رسول الله، أينا ذلك الرجل؟ قال: أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل. ثم قال: والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة. قال: فحمدنا الله وكبرنا. ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرقمة في ذراع الحمار ". رواه البخاري

وعن عمران بن حصين أن النبي - ﷺ - قال لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: 1]، قال: نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر، فقال: " أتدرون أي يوم ذلك؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة "، فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله - ﷺ - : " قاربوا وسددوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية، قال: فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت، وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير "، ثم قال : " إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا "، ثم قال: ولا أدري أقال: الثلثين أم لا. وكذا رواه الإمام أحمد، وقال الترمذي فيه: هذا حديث حسن صحيح.

وليس السبب في كثرة أهل النار هو عدم بلوغ الحق إلى البشر على اختلاف أزمانهم وأمكنتهم، فإن الله لا يؤاخذ العباد إذا لم تبلغهم دعوته، ولكن السبب وراء ذلك يعود إلى قلة الذين استجابوا للرسل وكثرة الذين كفروا بهم، وكثير من الذين استجابوا لم يكن إيمانهم خالصاً نقياً.

ولعل السبب الأعظم هو اتباع الشهوات، ذلك أن حب الشهوات مغروس في أعماق النفس الإنسانية، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14] وكثير من الناس يريد الوصول إلى هذه الشهوات بالطريقة التي تهواها نفسه ويحبها قلبه، ولا يراعي في ذلك شرع الله المنزل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال: " لما خلق الله النار، قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها ثم جاء، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، فقال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فلما رجع، قال: وعزتك لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها". رواه الترمذي وأبو داود والنسائي

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: " حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره ". أخرجه البخاري ومسلم، ولمسلم " حفت " بدل: " حجبت ".

وبعد أن ذكر الله النار وصفات أهلها، ومخاصمة قرين الكافر له بين يدي الله يوم القيامة؛ ذكر الله الجنة وصفة أهلها، وطرفا من نعيمها فقال:

يقول تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: 31]

(أزلفت) أي قُرِّبت، الزلفى هي القربة، والمعنى هنا أنها صارت مرئية قريبة للمؤمنين بعد أن كانوا في أرض المحشر، وبعد أن كان هناك مراحل قد مروا بها من البعث والنشور، ثم الحساب والعرض على الله، ثم القصاص ثم الصراط، الآن صارت الجنة قريبة منهم.

(الجنة) الجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وفي الحديث **القدسي يقول تعالى: " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" ثم قال الرسول - ﷺ -: " اقرؤوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) [السجدة:17]"**

ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العظمى قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185] **وقال تعالى:** ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72]

وقول الله تعالى {غَيْرَ بَعِيدٍ} تأكيد لـ (أزلفت)، أي أنها صارت مرئية قريبة ليدخلوها.

(هذا ما توعدون) على ألسنة الرسل بما جاءكم في آيات القرآن الكريم.

الصفات الأربع لأهل الجنة

يقول تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 32-33]

هنا يذكر الله أربع صفات لأهل الجنة:

- **الأولى: أواب.**
- **الثانية: حفيظ.**
- **الثالثة: يخشى الرحمن بالغيب.**
- **الرابعة: قلبه منيب.**

الصفة الأولى: العبد الأواب

الأوَّاب هو العبد كثير الرجوع إلى الله عز وجل؛ فكلما أذنب تاب، وكلما زلَّ أناب، وكلما ابتعد عاد إلى ربه سبحانه وتعالى.

وقد يدخل الشيطان على الإنسان من هذا الباب، فيقول له: أنت تذنب، ثم تتوب، ثم تعود إلى الذنب مرة أخرى؛ فكيف تكون توبتك صحيحة أو مقبولة؟

وهذا من تلبيس الشيطان وتثبيطه للعبد عن التوبة؛ فإن الواجب على المسلم كلما أذنب أن يبادر إلى التوبة والرجوع إلى الله تعالى، وألا ييأس من رحمته ومغفرته.

وقد ذكر الله تعالى من صفات أهل التقوى أنهم قد يقعون في الذنب، ولكنهم لا يصرون عليه، بل يذكرون الله ويستغفرونه ويتوبون إليه، فقال سبحانه:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 133-135].

فالعبد الأوَّاب، على هذا التفسير، هو كثير الرجوع إلى الله عز وجل بالتوبة والإنابة والطاعة، مهما تكررت منه الزلات، ما دام صادقًا في توبته كلما تاب.

وقال بعض المفسرين: إن **الأوَّاب** هو كثير التسبيح والذكر لله تعالى، ولا سيما في خلوته. واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى في شأن داود عليه السلام: ﴿**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ**﴾ **[سبأ: 10]** أي: سبِّحي معه وردِّدي التسبيح، وعلى هذا يكون معنى الأوَّاب: كثير الذكر والتسبيح لله تعالى، دائم الرجوع إليه بقلبه ولسانه.

ولا تعارض بين المعنيين؛ فإن كثرة التوبة والإنابة، وكثرة الذكر والتسبيح، كل ذلك من صور رجوع العبد إلى ربه سبحانه وتعالى.

الصفة الثانية: حفيظ

ومعنى "حفيظ" أي يحفظ أوامر الله، فيفعل ما أمر الله تعالى به، ويجتنب ما نهى الله عنه.

الصفة الثالثة: يخشى الرحمن بالغيب:

فهو في مقام الإحسان؛ يعبد الله تعالى ويخشاه مع أنه لم يره، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**﴾؛ أي: خاف الله تعالى وآمن به وراقبه، مع أن أمور الغيب لم تقع تحت مشاهدته؛ فلم يرَ الله عز وجل، ولم يشاهد الجنة ولا النار، ولا البعث ولا النشور، ومع ذلك امتلأ قلبه خشيةً لله وإيمانًا بوعده ووعيده.

وهذه الخشية بالغيب من أجلِّ مقامات الإيمان، ودليل على صدق العبد وكمال مراقبته لربه سبحانه وتعالى؛ إذ يعبده ويطيعه في السر والعلن، مستحضرًا اطلاع الله عليه وعلمه بأحواله.

وقد بيَّن النبي ﷺ حقيقة الإحسان في حديث جبريل المشهور، حين سأله جبريل عليه السلام عن الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، فقال ﷺ في تعريف الإحسان: **"أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ" رواه مسلم.**

فالمحسن يعبد الله تعالى على مقام المراقبة والمشاهدة القلبية؛ فإن لم يبلغ منزلة أن يعبد الله كأنه يراه، استحضر يقينًا أن الله تعالى يراه، ويعلم سره وعلانيته، فيورثه ذلك خشيةً ومراقبةً وإخلاصًا.

الصفة الرابعة: ذو القلب المنيب:

قال تعالى: "وجاء بقلب منيب"، القلب المنيب هو القلب السليم الراجع إلى الله سبحانه وتعالى، والقلب المنيب الذي يرد الأمور كلها إلى الله، من "أناب" إذا رجع، فهو إذا بَعُدَ عاد ليقترب، وإذا فتر عاد لينشط، وإذا تكاسل عاد ليكون أكثر همة ومسارعة بالخيرات، فهو قلب رجاع إلى الله سبحانه وتعالى.

والله عز وجل ذكر الإنابة من صفات أنبيائه فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: 75] وقال: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: 24] وقال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]

إلى غيرها من الآيات المباركة التي تبين أن الأنبياء وهم خيرة خلق الله كانت قلوبهم تنيب إلى الله، أي ترد الأمور إلى الله، فأنا كمؤمن أحيل الأمور كلها إلى الله، وأربط الأمور كلها بالله، وأعلم يقينًا أن كل شيء يحدث في هذا الكون هو من تقدير الله وتدبيره، وأن أفعال الله وأقدار الله لا تخلو من حكمة، فيكون قلب المؤمن منيبًا إلى الله، متعلقًا به سبحانه.

وهذا معنى قول الحبيب النبي ﷺ: "إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ". (رواه مسلم).

الغين هو السحاب الخفيف، ومعناه: ما يعرض للقلب من غطاء لطيف بسبب الاشتغال بالمباحات ومصالح الأمة، فيستغفر النبي ﷺ محافظة على أكمل مقامات القرب والذكر، وليس معناه وقوعه في معصية أو انصرافه عن طاعة الله، فقال إنه ليغان على قلبي، فيكون حاله ﷺ هو حال من يمسح مرآة قلبه لتعود طاهرة نقية

بيضاء لا شيء يؤثر فيها، وهنا يأتي نور البصيرة: **{وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ}** [غافر: 13]

يقول تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق: 34]

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ ادخلوا الجنة بسلام، وهذه الكلمة ما أطيبها من كلمة حينما تكون من رب العالمين بأن يدخل عباده إلى الجنة، إنها وعد الله عباده بالغيب أن يدخلوا الجنة دار النعيم، دار السلام.

والملائكة تستقبلهم بحفاوة وترحاب قائلين: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 24] ادخلوها بسلام؛ فهي دار لا شقاء فيها ولا تعب ولا مرض ولا هم ولا غم، إنها دار السلام بجوار رب العالمين.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ وهذا من أعظم النعيم إذ أن نعيم الجنة لا يزول، ولا ينتهي ولا ينقطع، **قال تعالى:** ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: 48]

والنبي ﷺ أخبرنا كما في الحديث الصحيح: "يؤتى بالموت يوم القيامة كهيئة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار... ثم ينادى: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت". (متفق عليه).

يقول تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: 35]

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ يعني ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم.

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (ينادي منادٍ: إن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا) رواه مسلم .

فمعنى الآية: أن أهل الجنة يجدون فيها كل ما يريدون من المطاعم والمشارب والمساكن والملابس والأزواج وسائر اللذات الطيبة، من غير تعب ولا مرض ولا خوف من زوال النعيم. ثم إن الله يمنحهم فوق ما تمنَّوه؛ ولذلك قال:

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ما هو المزيد؟ ما هو أعظم نعيم أهل الجنة؟

أعظم نعيم أهل الجنة رؤية وجه الله الكريم الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، الذي خلق الإنس والجن والملائكة، الذي هيأ دار الكرامة من فضله سبحانه وتعالى جائزة لعباده المتقين.

والنبي ﷺ قال: "أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا"، يقصد صلاتي الصبح والعصر. (متفق عليه).

ومعنى الحديث أنه ليس المقصود تشبيه الله بالقمر حاشاه جل وعلا **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى:11]** إنما المعنى كما أن الناس جميعا يرون القمر في السماء بدون ازدحام فكذلك سيرون الله عز وجل، فالنبي أراد أن يشبه إمكانية الرؤية برؤيانا للقمر بلا ازدحام.

وقد جاء هذا الأمر في عدة آيات من القرآن: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 26] وقال: **﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22-23]**

فإذا علمت أن أهل الجنة لا يعطون شيئاً فيها أحب إليهم من النظر إلى وجه ربهم جل وعلا تبين لك مدى الحرمان، وعظيم الخسران، الذي ينتظر المجرمين الذين توعدهم الله بقوله: **﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15]** نسأل الله السلامة والعافية.

ومن جميل ما يروى عن الشافعي ما ذكره عنه الربيع بن سليمان ـ وهو أحد تلاميذه ـ: قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله عز وجل: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)؟ فقال الشافعي: "لما أن حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليلٌ على أن أولياءه يرونه في الرضا "

وعن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب. فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل". وفي رواية: ثم تلا هذه الآية: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) [سورة يونس الآية:26] رواه مسلم.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الجنة، العاملين بعمل أهلها، الراغبين إلى الله تعالى فيها بالعمل الصالح والتوبة الصادقة النصوح، وأن يجعلنا وأهلنا وأحبابنا في مقعد صدق عند مليك مقتدر اللهم آمين.

الآثار الإيمانية والتربوية للآيات

1-حين يسمع المسلم وصف جهنم وسعتها وشدة عذابها، ثم يسمع وصف الجنة وقربها من المتقين، وما أعده الله فيها من النعيم، فلا ينبغي أن يقف عند حدود التأثر العاطفي المؤقت، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان عليه من الغفلة والتقصير؛ لأن المقصود من التذكير بالآخرة أن يراجع الإنسان طريقه، وأن يسأل نفسه بصدق: أيُّ الطريقين أسلك؟ وأيُّ المصيرين أستعد له؟

2-الإيمان بالنار يدفع المسلم إلى الابتعاد عن كل قول أو فعل يكون سببًا في سخط الله؛ كما يدفعه إلى رد المظالم، وأداء الأمانات، والتحلل من حقوق الناس قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا جاه.

3- الإيمان بالجنة يحث المؤمن على المسارعة إلى الطاعات، والإكثار من الأعمال الصالحة، والصبر على مشقة التكليف؛ لأنه يعلم أن ما يبذله في الدنيا من تعب في طاعة الله سيزول، وأن ما ينتظره عند الله أعظم وأبقى.

4-مشهد النار يوقظ في القلب الخوف من عاقبة الذنوب، ومشهد الجنة يفتح له باب الرجاء في رحمة الله؛ وباجتماع الخوف والرجاء تنشأ التوبة الصادقة.

5-المؤمن لا ينظر إلى النار ليقنط من رحمة الله، ولا ينظر إلى الجنة ليتكل على الأماني ويترك العمل، وإنما يخاف ذنوبه ويرجو رحمة ربه، فيدفعه خوفه إلى ترك المعصية، ويدفعه رجاؤه إلى العودة إلى الله.

6-المؤمن يسير إلى الله بأمرين متكاملين: توبة تعالجه إذا أخطأ، ومراقبة تحميه قبل أن يخطئ.

7-الاستقامة لا تعني أن الإنسان لن يخطئ أبدًا، وإنما تعني أنه يجاهد نفسه على حفظ حدود الله، فإذا غلبته نفسه لم يصر على الخطأ، بل يعود سريعًا إلى ربه.

8-خشية الرحمن بالغيب تعني أن يراقب العبد ربه ويخشاه، وإن لم يره الناس، ومن استقرت هذه الخشية في قلبه استحيا أن يراه الله حيث نهاه، أو يفتقده حيث أمره؛ فلا يغش إذا غاب الرقيب، ولا يخون الأمانة إذا أمن العقوبة، ولا ينظر إلى الحرام في خلوته، ولا يظهر أمام الناس بصورة الصالح ثم ينتهك حدود الله إذا انفرد بنفسه.

9-القلب المنيب هو القلب الراجع إلى الله، المقبل عليه بالمحبة والطاعة والتوبة، وليس معنى الإنابة مجرد رد الأمور إلى الله باللسان، وإنما معناها أن يتجه القلب إلى الله في قصده وخوفه ورجائه ودعائه، وأن يعود إليه كلما شغلته الدنيا أو أصابته الغفلة.

10-ومن علامات القلب المنيب أنه ينتفع بالموعظة، ويتألم من الذنب، ويفرح بالطاعة، ويسرع إلى الاستغفار، ولا يستكبر عن قبول الحق، فإذا ذُكّر تذكر، وإذا نُصح قبل، وإذا نزل به البلاء لجأ إلى الله، وإذا أنعم الله عليه شكر ولم ينسب الفضل إلى نفسه.

11-تربي الآيات المؤمن على دوام مراقبة الله تعالى؛ فكل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل محفوظ في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، واستحضار هذه الحقيقة يحمل العبد على محاسبة نفسه قبل أن يحاسب.

12-إذا كان الشيطان يترصد قلب الإنسان ويوسوس له، فإن الله لم يترك عبده بلا سلاح، بل شرع له الاستعاذة والأذكار وقراءة المعوذات والإقبال على القرآن، فإذا عرضت له وسوسة أو دعوة إلى معصية لم يسترسل معها، وإنما استعاذ بالله وقطع خواطرها وأشغل قلبه بما ينفعه.

المعنى الإجمالي للآيات:

1. النار دار العذاب والخزي والخسران، أعدَّها الله للكافرين والمتمردين على شرعه.

2.جهنم عظيمة الاتساع، بعيدة القعر، شديدة الهول، ولا تمتلئ بمجرد إلقاء أهلها فيها.

3.الله تعالى لا يظلم أحدًا؛ فلا يدخل النار إلا من استحقها، ولا يخلق خلقًا ليعذبهم فيها بغير ذنب.

4.المؤمن مطالب بالخوف من النار والعمل للنجاة منها، مع عدم اليأس من رحمة الله.

5.الجنة دار النعيم الكامل والسلام الدائم، لا مرض فيها ولا تعب ولا حزن ولا موت.

6.من أبرز صفات أهل الجنة الأربع: كثرة الرجوع إلى الله، وحفظ حدوده، وخشيته بالغيب، والمجيء بقلب منيب.

7.العبد الأوَّاب لا يصر على الذنب، بل يعود إلى الله بالتوبة كلما زلَّ، ولا يسمح للشيطان أن يقنطه من المغفرة.

8.الحفيظ هو الذي يحفظ أوامر الله بالامتثال، ويحفظ حدوده باجتناب ما نهى عنه.

9.خشية الله بالغيب دليل صدق الإيمان؛ لأنها تحمل العبد على مراقبة الله وطاعته في السر والعلن.

10.مقام الإحسان يتحقق بأن يعبد المسلم ربَّه مستحضرًا مراقبته واطلاعه عليه في جميع أحواله.

11.القلب المنيب دائم الرجوع إلى الله؛ فإذا فتر نشط، وإذا ابتعد عاد، وإذا أذنب استغفر.

12.الإنابة تشمل تعلق القلب بالله، وردَّ الأمور إليه، والثقة بحكمته وتدبيره في جميع أقداره.

13.أعظم نعيم أهل الجنة هو رضوان الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم.

14.التأمل في مشهدي الجنة والنار يوقظ القلب، ويزهد في متاع الدنيا الزائل، ويدفع إلى التوبة والطاعة والاستعداد للآخرة.

الفصل التاسع

"لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ"

قال تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: 36-38]

الفصل التاسع

"لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ"

بعد أن ذكر سبحانه جزاء المتقين ونعيمهم، انتقل إلى تهديد المكذبين وإنذارهم، مذكِّرًا إياهم بالأمم السابقة التي كانت أشد قوةً وبطشًا منهم، ومع ذلك لم تنفعهم قوتهم حين جاءهم عذاب الله، ولم يجدوا مهربًا ولا ملجأ.

وفي هذا الانتقال تقوية لمقصد السورة في إثبات البعث والجزاء :فكما أن للمتقين حسن العاقبة، فإن للمكذبين عاقبةً أخرى، وقد دلَّ تاريخ الأمم السابقة على أن القوة الدنيوية لا تمنع عقوبة الله.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ [ق: 36]

﴿وكم أهلكنا قبلهم مِنْ قَرْنٍ﴾ **"وكم"** هذا تعبير قرآني يشير إلى الكثرة يعني هذه سنة الله الجارية التي ليس فيها محاباة.

(قبلهم) أي قبل أهل مكة، والخطاب يعم كل من يسمع سواء أهل مكة، أو من يأتي بعدهم؛ أن الله قد أهلك قبلهم من هو أشد في القوة والبطش وأكثر في الأموال والأسباب المادية.

وكلمة "قرن" تعني أمة أو جيل، وإن غلب في الاستعمال العصري الآن أنها تطلق على كل مئة سنة إلا أن الاستعمال القرآني يطلقها غالباً على كل أمة أو على كل جيل من الأجيال، لأن الأعمار في السابق كانت أطول من الأعمار حالياً.

﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ البطش هو القوة؛ ويقصد بها القوة الغالبة، فكل قوي هناك من هو أقوى منه، أما البطش فهو أن ينزل القوي البأس الشديد بخصمه.

والمعنى: أمة غالبة متفردة بالقوة والحضارة المادية والعلو على من سواها من الأمم.

﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أصل النقب: الثقب أو الفتحة في الجدار أو الجبل، والتنقيب هو البحث عن الشيء، ومنه التنقيب عن البترول.

﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ هل كان لهم مهرب أو مفر أو ملجأ من عذاب الله؟ والاستفهام هنا يفيد نفي وجود المفر.

وللعلماء وجهان في هذه الآية:

الأول: أي طافوا البلاد شرقها وغربها، إما لأنهم يملكون جيشا قويا وإما لتجارتهم الواسعة، وأموالهم الوفيرة؛ أي: فطافوا البلاد شرقاً وغرباً لقوتهم، أو لتجاراتهم الواسعة.

الثاني: أي لما وقع بهم عذاب الله بحثوا عن ملجأ يلجؤون إليه أو مهرب يهربون إليه فلم يجدوا.

إذاً فمعنى الآية: فليذكر هؤلاء المكذبون كم أهلك الله تعالى من أمم سابقة كانت أشد منهم قوة وبطشاً وأموالاً وإمكانات، ومن سلطانهم وسعة تجاراتهم نقبوا في البلاد أي سافروا شرقاً وغرباً، أو أنهم لما وقع بهم بأس الله صاروا يبحثون عن مهرب يهربون إليه **{هَلْ مِن مَّحِيصٍ}** أي أنهم لم يجدوا مفراً من قضاء الله إذا نفذ.

إمهال الله للظالم

كان أهل مكة يقولون: نحن أهل الحرم سدنة البيت ويفتخرون بهذا، فأراد الله تعالى أن يبين لهم أنهم لا كرامة لهم عند الله بكفرهم، فليس معنى أنكم أهل الحرم، أو أنكم تقومون بخدمة الحجيج، وتكفرون بالله ورسوله الذي أرسله إليكم أن ذلك سيعصمكم من العذاب فقد أهلك الله تعالى من هو أشد منكم بطشاً.

والآية تشير إلى أن الله تعالى قد يمهل الظالم لأنه حليم لا يعجل، لكن لا يهمله، كما قال النبي ﷺ: **(إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ"**. الإملاء هو الإمهال.

ولو تأملنا في مصارع الأمم وأسباب هلاكها قديماً وحديثاً سنجد أن أول سبب من أسباب الإهلاك هو: الكفر بنعم الله عز وجل، ثم العلو والاستكبار، ثم انتشار الظلم والبغي؛ فلا ينفعهم ما آتاهم الله تعالى من إمكانات أو حضارة.

وعطاء الله تعالى لأي أحد ليس معناه أن الله راضٍ عنه بل سماه العلماء فتح الاستدراج.

ما معنى فتح الاستدراج؟

الفتح نوعان:

1- فتح إنعام على المؤمنين.

2- وفتح استدراج على العصاة والكافرين.

فأما فتح الإنعام فالمقصود به ما يفتحه الله على من يشاء من عباده من الحكمة والعلم والفقه في الدين، بحسب التقوى والإخلاص والصدق، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [الأعراف: 96]

ففتح الإنعام ثمرة من ثمرات التقوى فحينما يفتح الله على أمة من الأمم أو عبد من عباده لا يرزقهم بركة واحدة، وإنما يرزقهم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ بلا حساب، من فوقهم ومن تحت أرجلهم، بلا تحديد ولا تفصيل، فهي البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، ما يعهده الناس وما لا يخطر لهم ببال.

وأما فتح الاستدراج: فهو أن يفتح الله على بعض أهل المعاصي من الرزق ما يغترون به، ويكون سبباً في هلاكهم، وهذا من مكر الله بهم، استدراجاً لهم إذا تركوا ما أمروا، ووقعوا فيما نهوا عنه، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**﴾ **[الأنعام: 44]**

روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج"، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]

فلنتأمل الآية وكيف انتقل القوم من حال إلى حال، باستدراج من الله، أولاً: نسوا ما ذكروا به، أعرضوا، عصوا، وعاندوا، بعد ذلك **(فتحنا عليهم أبواب كل شيء)** من

صنوف النعم فظنوا بتزيين إبليس أن الله راض عنهم، فلماذا أعطاهم إذا كان ساخطاً عليهم؟

فلما غمرتهم النعمة وأتاهم العطاء من أبواب متعددة **(فرحوا بما أوتوا)**، انتقم الله منهم **(أخذناهم بغتة)** أي فجأة، وهم غافلون، فكان الوقع الأليم لهذا الانتقام **(فإذا هم مبلسون)** الإبلاس: الحَيرَة واليأس، فمعنى مُبلِسون: أي نادمون ساكتون متحسّرون على ما فَرَطَ منهم.

وكما قالت العرب: "السعيد من وُعِظ بغيره لا بنفسه" أي أن السعيد الذي يرى الأمور فيتعظ ويعتبر، ويعلم يقيناً أنه ليس بعيداً عن الله عز وجل ولكن الله من حلمه ولطفه أمهله فلم يعاجله كما عاجل غيره.

فمن ينتفع من هذه الموعظة؟

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]

قال تعالى: "إن في ذلك" للعلماء قولان في عود اسم الإشارة:

الأول: الإشارة إلى ما ورد من آيات في هذه السورة من بدايتها إلى هذا الموضع.

الثاني: الإشارة إلى إهلاك الله تعالى للأمم السابقة لما كفروا بالله وعصوا رسله.

ومعنى "ذكرى" أي تذكر واعتبار.

{لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ} أي قلب حي، لأن صاحب القلب الميت لا يعي ولا يدرك إذا مر به حدث كأنه لا يعنيه، أما صاحب القلب الحي فإنه يتعظ ويعتبر، ويلين ويتوب.

كما يذكر أن الصحابي الجليل أبا الدرداء رضي الله عنه لما فتح المسلمون جزيرة قبرص بكى قالوا أتبكي في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟

قال هذه الأمة كانت قاهرة غالبة فلما عصوا الله تعالى، وكفروا بنعمه أخذهم الله تعالى.... فما أهون العباد على الله إذا هم عصوا أمره؛ ما أهون العباد على الله إذ هم عصوا أمره.

أبو الدرداء في يوم عز للإسلام يقول ما أهون العباد على الله إذا هم عصوا أمره فهو يرى مشهد عبرة وعظة لأمة قوية هلكت ودالت دولتها حينما جاءهم بأس الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37]

{أَلْقَى السَّمْعَ} أي: أصغى لما يقال كلمة كلمة.

ومعنى {وَهُوَ شَهِيدٌ} أي حاضر القلب والبدن، فينتفع بآيات الله عز وجل صاحب القلب الحي الذي يصغي سمعه وهو شهيد حاضر الذهن.

وهذا يبين لنا أن كتاب الله عز وجل يحتاج منا إلى وقفات في التدبر والتأمل والفهم، لأن الله تعالى ما أمرنا بتكرار التلاوة، وتكرار التعبد به في الصلوات، وفي المحاريب إلا لفائدة ينبغي ألا نغفل عنها، فتلاوة القرآن فوق أنها تلاوة للتعبد فإنها تلاوة للاتعاظ والاعتبار، وهذا ما قاله الله عز وجل: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]

ما معنى التدبر؟

تدبر الشيء يعني النظر في عواقبه؛ والمقصود بتدبر القرآن التأمّل فيه لتفهم معنى كلام الله عز وجل، فالقرآن فيه خطاب الله لعباده.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فارعها سمعك، فخير تؤمر به أو شر تنهى عنه".

وكان الشاعر الباكستاني المشهور محمد إقبال يقول: كان أبي يقول لي يا بني اقرأ القرآن وكأنه عليك أُنزل.

كأن الخطاب لك أنت ماذا يريد الله منك؟ الله يكلمك الله يخاطبك ما هو مراد الله تعالى من هذه الآيات؟

إذًا علينا أولا فهم ما يريد الله منك في الآية، ثم التعمق في الفهم، وأخذ العبرة من النص القرآني.

والتعمق في الفهم هو نتيجة للأمر الأول، وله بعد معرفي وإيماني؛ فمعرفة معنى الآية بعمق يعني أن تدخل إلى المعنى الذي يقوي إيمانك.

على سبيل المثال، عند قراءة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 13-14] نفهم منها أن الأبرار سيدخلون الجنة، والفجار سيدخلون النار.

لكن الإمام ابن القيم رحمه الله أضاف بُعدًا إيمانيًّا، فقال: ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 13-14] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة كذلك -أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار- فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله؟ وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب. [1]

وعند قراءة آيات قصص القرآن؛ فالهدف ليس للتسلية، بل لأخذ العبرة والعظة؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]

إذاً فحينما نريد أن ننتفع بالقرآن نحتاج إلى:

- أولاً تلاوته تلاوة صحيحة.
- ثانيا فهمه فهماً مستقيماً صحيحاً.
- ثالثا التدبر؛ فالتدبر ثمرة للتلاوة والفهم.

خلاصة معنى الآيتين:

على العباد أن يتعظوا ويعتبروا بأحوال الأمم السابقة وأنه لا عزيز عند الله بمعصية أو كفر؛ إنما العزيز عند الله عزيز بإيمانه وتقواه، وأن الله قد يمهل للظالم لكن لا

---

[1] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافيص (116)

يهمله، وأن بأس الله إذا وقع لا مفر منه ولا نجاة منه وأن من يتعظ بهذه الآيات هو صاحب القلب الحي الذي يلقي سمعه وهو شهيد حاضر بجسمه وحاضر بعقله وقلبه ليفهم مراد الله ويتدبر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: 38]

تأتي هذه الآية تأكيداً على قدرة الله تعالى على إعادة خلق الإنسان وبعثه من قبره مرة أخرى، فالذي خلق السماوات باتساعها وشموخها، وخلق الأرض وما فيها، ومن عليها، وخلق ما بينهما من كواكب ومجرات وأفلاك، وملك لا يعلم مداه إلا الله عز وجل قادر على أن يعيد خلق الإنسان.

وهذا بقياس الأولى؛ بمعنى أن الذي يفعل الكبيرة قادر على فعل الصغيرة فلو وضعنا في الميزان خلق الإنسان، أو إعادة خلقه وخلق السماوات والأرض سنجد أن خلق السماوات أكبر كما قال تعالى في سورة غافر: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57] فهذا استدلال على قدرة الله تعالى على أن يعيد الإنسان مرة أخرى.

هل الستة أيام هي من أيام الأسبوع المعروفة لدينا؟

اختلف المفسرون في أسماء الأيام الستة، ومقدار كل يوم منها، أما أسماؤها، فذكر الطبري وابن كثير والسعدي أن أولها الأحد وآخرها الجمعة، أي إنها تقابل ستة أيام الأسبوع المعروفة.

وعند مناقشة هذا القول نجد أنه لا يتكئ على دليل صحيح صريح، وأما الحديث **الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل)**

فهذا الحديث مما اختلف فيه أهل العلم، فذهب يحيى بن معين، وعبد الرحمن بن مهدي، والبخاري وغيرهم، إلى أنه غلط، وأنه ليس من كلام النبي ﷺ، بل صرح البخاري في تاريخه الكبير بأنه من كلام كعب الأحبار.

فهذه الأيام ليست السبت والأحد والإثنين؛ وإنما هي أيام في علم الله تعالى، إذ كيف نقدر مدة خلق الكون بعلامة لم تكن موجودة عند خلقه؟

الأرض تدور حول نفسها فيحدث الليل والنهار، وتدور حول الشمس فتحدث الفصول الأربعة، أما قبل خلق الخلق فلا سماوات ولا أرض ولا شمس ولا قمر، كيف نقدرها بأيام الدنيا التي لم توجد بعد؟

إذا لم تكن هذه الأيام كأيام الدنيا فكم يكون قدر اليوم؟ أغلب المفسرين أن تقدير اليَوْمَ كل يوم كَأَلْفِ سَنَةٍ.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]

قال: مَعْنَى (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) أي من أيام الآخرة أي كل يوم ألف سنة لتفخيم خلق السماوات والأرض.... وذكر هذه المدة ولو أراد خلقها في لحظة لفعل، إذ هو القادر على أن يقول لها "كوني فتكون" ولكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور.... وحكمة أخرى من خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلا ...اهـ

وهذا إشارة لقول الله تعالى: **(وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) [الحج: 47]**

وهو اجتهاد مقبول، لكن لا شك أنها ليست كأيام الأسبوع لأنها لم تكن وجدت بعد.

ويرى الأستاذ سيد قطب رحمه الله: أن الأيام الستة المذكورة في القرآن من غيب الله الذي لا سبيل إلى معرفة حقيقته إلا من طريق الوحي، ولذلك يجب الوقوف عند النص وعدم التكلف في تحديد مقدارها، ويؤكد أن هذه الأيام ليست من أيامنا الأرضية؛ لأن أيامنا إنما نشأت بعد خلق الأرض والشمس، فهي مقياس زمني مرتبط بدوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، ولا يصح حمل أيام الخلق عليها.

ويبين أن المقصود من ذكرها هو الإشارة إلى حكمة الله في التقدير والتدبير والنظام الذي قام عليه الكون، وأن الخلق جرى وفق مراحل مرتبة حتى أصبحت السماوات

والأرض مهيأتين للحياة التي أرادها الله، ولعل هذه الأيام تمثل أطوارًا أو مراحل أو أزمانًا من أيام الله لا يعلم حقيقتها ومدتها إلا سبحانه.

كما يقرر أن ما يورده العلماء من تقديرات لعمر الأرض أو لمراحل تكوينها لا يعدو أن يكون نظريات علمية قابلة للتعديل، فلا يجوز أن تُحمَّل عليها نصوص القرآن أو تُجعل معيارًا لتفسيرها، وإنما يُستأنس بها إذا وافقت ظاهر النص من غير تكلف ولا تعسف، مع بقاء العلم بحقيقة هذه الأيام عند الله تعالى وحده. [1]

الحكمة من خلق السماوات والأرض في ستة أيام

---

[1] ورد هذه في عدة مواضع من تفسير الظلال فقال في سورة الفرقان :وأيام الله التي خلق فيها السماوات والأرض غير أيامنا الأرضية قطعاً، فإنما أيامنا هذه ظل للنظام الشمسي، ومقياس لدورة فلكية وجدت بعد خلق السماوات والأرض، وهي مقيسة بقدر دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس... ولعل هذه الأيام الستة من أيام الله التي لا يعلم مقدارها إلا هو، إنما تمت فيها أطوار متباعدة في السماوات والأرض حتى انتهت على وضعها الحالي....

وقال في سورة السجدة :والأيام ليست قطعاً من أيام هذه الأرض التي نعرفها، فأيام هذه الأرض مقياس زمني ناشئ من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة تؤلف ليلاً ونهاراً على هذه الأرض الصغيرة الضئيلة التي لا تزيد على أن تكون هباءة منثورة في فضاء الكون الرحيب، وقد وجد هذا المقياس الزمني بعد وجود الأرض والشمس، وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة، وأما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة في القرآن الكريم فعلمها عند الله تعالى، فلا سبيل إلى تحديدها وتعيين مقدارها فهي من أيام الله تعالى التي يقول عنها: (وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) [الحج:47] قد تكون ستة أطوار مرت بها السموات والأرض وما بينهما حتى انتهت إلى ما هي عليه، أو ستة مراحل في النشأة والتكوين، أو ستة أدهار لا يعلم ما بين أحدها والآخر إلا الله....

وقال في تفسير سورة فصلت :قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) وهذان اليومان اللذان خلق الله فيهما الأرض، والاثنان اللذان خلق فيهما الرواسي وقدر فيهما الأقوات وأحل فيهما البركة فتمت بهما الأيام الأربعة..... إنها بلا شك أيام من أيام الله التي يعلم هو مداها، وليست من أيام هذه الأرض... والأيام التي خلقت فيها الأرض أولاً، ثم تكونت فيها الجبال، وقدرت فيها الأقوات، هي أيام أخرى مقيسة بمقياس آخر لا نعلمه، ولكننا نعرف أنه أطول بكثير من أيام الأرض المعروفة وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إليه علمنا البشري أنها الأزمان التي مرت بها الأرض طوراً بعد طور، حتى استقرت وصلبت قشرتها، وأصبحت صالحة للحياة التي نعلمها، وهذه قد استغرقت بحسب النظريات التي بين أيدينا -نحو ألفي مليون سنة من سنوات أرضنا. وهذه مجرد تقديرات علمية مستندة إلى دراسة الصخور وتقدير عمر الأرض بواسطتها، ونحن في دراسة القرآن الكريم لا نلجأ إلى تلك التقديرات على أنها حقائق نهائية، فهي في أصلها ليست كذلك، وما هي إلا نظريات قابلة للتعديل، فنحن لا نحمل القرآن عليها، إنما نجد أنها قد تكون صحيحة إذا رأينا بينها وبين النص القرآني تقارباً، ووجدنا أنها تصلح تفسيراً للنص القرآني بغير تمحل، فنأخذ من هذا أن هذه النظرية أو تلك أقرب إلى الصحة لأنها أقرب إلى مدلول النص القرآني .اهـ

دائما يطرح هذا السؤال: إذا كان الله على كل شيء قدير وفعال لما يريد ولا يعجزه شيء ويقول للشيء كُن فيكون فلماذا خلق السماوات والأرض في ستة أيام؟ لماذا لم يخلقها بأمره أن تكون فتكون؟

خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام لعدة حكم:

الحكمة الأولى: أن الله تعالى يعلمنا الإحكام والإتقان في كل شيء:

كل شيء في الكون يسير وفق قانون ثابت مضطرد لا خلل ولا اضطراب شروق الشمس وغروبها علماء الفلك من الممكن أن يضبطوا الآن إلى مئات السنين مواقيت الصلاة من خلال الحسابات الفلكية، ووقت شروق الشمس ووقت الغروب.

وهناك مواقع الآن عالمية متخصصة تدخل عليها يقول لك هناك كسوف للشمس في عام 2026 يكون في المنطقة الفلانية الساعة كذا بالدقيقة كذا وسيكون الكسوف لمدة كذا... كيف ضبطوا هذا؟ هل هذا سحر أو تنجيم؟

كلا هذا علم مبني على قوانين؛ قال تعالى: **{الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} [الرحمن:5]**

وقال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [يونس: 5]

الحكمة الثانية: مبدأ التدرج والأخذ بالأسباب:

فقد جعل الله عز وجل كل شيء بسبب في الكون الله تعالى لم يجعل الكون فيه فوضى أو عشوائية، وهذا الذي دعا العلماء إلى استقراء الأحداث وتحليلها.

والظواهر التي تجري من حولنا تخضع للتفسير العلمي، فمهمة العلماء ليست هي صناعة القانون؛ مهمة العلماء اكتشاف القانون، وبعد اكتشاف القانون تأتي النتائج والاختراعات للاستفادة العلمية.

لو احتجنا أن نبني مسجدا هل نبدأ بالسقف أم نبدأ بالأساس؟ الأساس أولاً، ثم الأعمدة، ثم السقف، ثم الحيطان، ثم النوافذ... وهكذا شيء يسلم لشيء؛ فالكون بدأ بمرحلة تلو الأخرى حتى صار الكون بهذه العظمة.

الحكمة الثالثة: ليتعلم الخلق معنى النظام والإتقان:

والله تعالى ليس من صفاته العجلة؛ إنما من صفاته الحكمة، والحلم؛ فخلق الكون في ستة أيام ليتعلم الخلق معنى النظام والترتيب وإتقان الشيء وإحكامه، وحتى يفهم البشر عظمة الله جل وعلا باكتشاف هذه القوانين التي يسعى العلماء حيناً بعد حين لتعلمها ودراستها؛ حتى يصلوا إلى فهم القوانين واكتشافها.

وقوله تعالى: {وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ} اللغوب هو الإعياء الناتج عن بذل الجهد والمشقة؛ فنفى الله تعالى عن ذاته الكريمة أن يكون بهذا الخلق قد لحقه أي تعب.

وحرف الجر **"من"** في قوله: **{مِن لُّغُوبٍ}** لاستغراق النفي؛ أي النفي التام لأي تعب أو إعياء.

وكان اليهود يقولون: إن الله عز وجل خلق الكون يوم الأحد وانتهى منه بعد العصر يوم الجمعة واستراح يوم السبت، وفي هذه السورة نفي لكلامهم، قال تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ}** [ق:38]

وقد ورد في سفر التكوين، الإصحاح الثاني، العدد الثاني: " وَفَرَغَ اللهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ، فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ"

وورد في سفر الخروج، الإصحاح الحادي والثلاثين، العدد السابع عشر "لأَنَّهُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ اسْتَرَاحَ وَتَنَفَّسَ"

الآثار الإيمانية والتربوية

1- الاعتبار بمصارع الأمم السابقة؛ فقد كانت أشد بطشًا، وامتلكت من أسباب القوة والعمران ما لم يمتلكه غيرها، ومع ذلك لم تحمها قوتها حين جاء أمر الله.

2- توجه الآيات المسلم إلى قراءة تاريخ الأمم قراءة إيمانية، فلا ينظر إلى أخبار السابقين على أنها أحداث انتهت، بل يراها شواهد على سنن الله التي لا تتبدل ولا تحابي أحدًا.

3- وتغرس الآيات في القلب أن القوة الحقيقية لله وحده، وأن ما يملكه البشر من مال أو سلاح أو علم أو سلطان لا يخرجهم عن قبضة الله ولا يمنع عنهم حكمه.

4- قد يمهل الله الظالم ولا يعاجله بالعقوبة، فيظن أن تأخر الأخذ دليل على رضاه عنه أو عجزه عن مؤاخذته، والآيات تبين أن الإمهال ليس إهمالًا، وإنما هو من حلم الله، حتى إذا أخذ الظالم لم يفلته، ومن ثم لا ينبغي للعاصي أن يغتر بالستر وطول المهلة، بل يجعل ذلك فرصة للتوبة ورد الحقوق قبل أن يأتيه الأخذ بغتة.

5- ليس كل سعة في الرزق علامة على محبة الله لصاحبه؛ فقد يكون فتح إنعام وبركة على المؤمن، وقد يكون فتح استدراج على من يستمر في المعصية. ولذلك لا يقيس المسلم منزلته عند الله بمقدار ما جمع من مال أو حقق من نجاح، بل يقيسها بحاله مع الطاعة والشكر والاستقامة.

6- أن الكفر بالنعم من أسباب هلاك الأمم، أما الإيمان والتقوى فسبب لفتح بركات السماء والأرض، وهذا يربي المسلم على مقابلة النعمة بالشكر، واستعمالها فيما يرضي الله.

9. إذا توالت النعم على الإنسان مع إصراره على المعصية، فلا ينبغي أن يطمئن إلى حاله، بل يحاسب نفسه؛ لأن ذلك يحميه من الغرور، ويدفعه إلى تجديد التوبة.

10. القلب الحي الذي يعقل عن الله، ويلين للحق، ويتأثر بالموعظة؛ فالمشكلة ليست دائمًا في غياب الدليل، وإنما قد تكون في موت القلب وقسوته، ولذلك يعتني المؤمن بإحياء قلبه بالتوبة والذكر والقرآن، ويخشى أن تتتابع عليه الذنوب حتى يسمع المواعظ فلا تتحرك نفسه.

11. لا يكفي سماع القرآن بالأذن مع شرود العقل وغفلة القلب، بل لا بد من إلقاء السمع والحضور الكامل، وهذا يربي المسلم على الإنصات والتأمل عند تلاوة القرآن، وإبعاد ما يشغله، حتى يستقبل كلام الله بقلب حاضر يريد معرفة مراد ربه والعمل به.

12. تلاوة القرآن عبادة عظيمة، لكن تمام الانتفاع بها يكون بفهم الآيات والنظر في دلالاتها وعواقب العمل بها؛ فالمطلوب أن يقرأ المسلم القرآن وكأنه يخاطب به، فيسأل عند كل أمر: كيف أمتثل؟ وعند كل نهي: كيف أجتنبه؟ وعند كل قصة: ما العبرة التي ينبغي أن تغير سلوكي؟ وبذلك تنتقل التلاوة من حركة اللسان إلى حياة القلب واستقامة الجوارح.

13. الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما قادر على إعادة الإنسان بعد موته، بل إن إعادة الخلق أهون في تصور البشر من إنشاء هذا الكون العظيم أول مرة.

14. التأمل في عظمة الخلق يزيل الشك في البعث، ويجعل الإيمان بالقيامة قائمًا على مشاهدة آثار قدرة الله في الكون، فلا يقيس المؤمن قدرة الخالق بقدرة المخلوق الضعيف.

15. تنزيه الله تنزيهًا كاملًا عن التعب والإعياء؛ فقدرته لا يلحقها ضعف، وفعله لا يشق عليه، ولا يحتاج بعد الخلق إلى راحة.

المعنى الإجمالي للآيات:

1. القوة المادية وكثرة الأموال لا تمنع عذاب الله إذا نزل.

2. سنن الله في هلاك الظالمين والمكذبين ماضية لا تحابي أمة ولا فردًا.

3. المراد بالقرن في الاستعمال القرآني الأمة أو الجيل من الناس.

4. البطش هو القوة الغالبة التي يتمكن بها صاحبها من إنزال البأس بغيره.

5. قوله تعالى ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ يحتمل طوافهم فيها لقوتهم وسعة تجارتهم، أو بحثهم عن مهرب حين نزل بهم العذاب.

6. لا يوجد للإنسان مفر من قضاء الله إذا جاء، كما يدل عليه قوله ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾.

7. الانتساب إلى الأماكن المقدسة أو القيام ببعض الأعمال الصالحة لا ينفع مع الكفر والإعراض عن الله.

8. الله قد يمهل الظالم بحلمه، لكنه لا يهمله ولا يفوته.

9. من أبرز أسباب هلاك الأمم الكفر بالنعم، والاستكبار، والظلم، والبغي.

10. كثرة النعم ليست دليلًا لازمًا على رضا الله عن صاحبها.

11. الفتح نوعان: فتح إنعام وبركة لأهل الإيمان والتقوى، وفتح استدراج لأهل المعاصي والإعراض.

12.فتح الإنعام يشمل ما يمنحه الله لعبده من العلم والحكمة والفقه والرزق والبركة.

13.فتح الاستدراج هو توالي النعم على العبد مع استمراره في المعصية حتى يغتر، ثم يؤخذ بغتة.

14.الواجب أن تدفع النعمة صاحبها إلى الشكر والطاعة، لا إلى الغفلة والطغيان.

15.السعيد من اتعظ بمصير غيره قبل أن يصبح هو نفسه عبرة للآخرين.

16.لا ينتفع بالمواعظ الانتفاع الكامل إلا صاحب القلب الحي الذي يلين للحق ويتوب إلى الله.

17.إلقاء السمع يعني حسن الإنصات، والشهيد هو حاضر القلب والعقل والبدن.

18.الانتفاع بالقرآن يحتاج إلى تلاوة صحيحة، وفهم مستقيم، وتدبر يثمر العمل.

19.تدبر القرآن هو التأمل في معانيه وعواقب العمل بأوامره ونواهيه.

20.ينبغي للمسلم أن يقرأ القرآن مستشعرًا أن الخطاب موجه إليه، متسائلًا عما يريده الله منه.

21.قصص القرآن لم تذكر للتسلية، وإنما للعظة والاعتبار ومعرفة سنن الله.

22.العزة الحقيقية لا تكون بالقوة أو الحضارة، وإنما بالإيمان والتقوى والطاعة.

23.خلق السماوات والأرض دليل ظاهر على قدرة الله على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته.

24.خلق السماوات والأرض أعظم من خلق الناس، فمن قدر على الأعظم فهو على ما دونه أقدر.

25.حقيقة الأيام الستة ومقدارها من أمور الغيب التي ينبغي الوقوف فيها عند الدليل وعدم الجزم بغير علم.

26.لا يجوز إخضاع النصوص القرآنية للنظريات العلمية المتغيرة أو تحميلها ما لا تحتمل.

27.خلق الله الكون في مراحل يعلم الخلق أهمية التدرج والأخذ بالأسباب.

28.انتظام الكون ودقة قوانينه يدلان على حكمة الله وإحكامه وتقديره.

29.المؤمن مأمور بالإتقان والترتيب والبعد عن العجلة والفوضى في أعماله.

****

الفصل العاشر

فذكِّر بالقرآن مَن يخاف وعيد

قال تعالى:

﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: 39-45]

الفصل العاشر

فذكِّر بالقرآن مَن يخاف وعيد

كان المشركون يقولون عن الرسول ﷺ أكاذيب كثيرة؛ أنت مجنون ...أنت ساحر.... كاهن... شاعر... وجئت بما لم يأتِ به الأوائل تسب آلهتنا وتسفه أحلامنا، وهذه الأقاويل كانت تسبب شعور النبي بضيق الصدر، والأسى على نفور قومه ونفورهم من اتباع الحق.

أمر الله تعالى نبينا ﷺ أن يتزود بالزاد الروحي بتقوية العلاقة مع الله.

وأعجبني كلام للإمام الرازي في تفسير الآية قال: إن للرسول مهمتين: المهمة الأولى عبادة الله، والمهمة الثانية دعوة الخلق إلى الله؛ فإذا لم يستجب الخلق لدعوته بقي عليه أن يعبد الله عز وجل.

فالزاد الروحي للمؤمن مهم جدا خاصة عند اشتداد الأذى ولتحقيق الثبات أمام الفتن والعواصف والأكاذيب التي يسمعها يومياً.

فأوصاه بالصبر وأمره بالتسبيح فقال تعالى:

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: 39]

ما معنى فسبح؟ هل التسبيح المقصود به الصلاة وعُبِّر عن الصلاة بالتسبيح لأنها تشتمل على التسبيح في الركوع والسجود؟ أم أن المقصود حقيقة التسبيح؟ قولان للعلماء:

الأول: المقصود الصلوات، واستدلوا بقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: 97-99]**

وحديث النبي ﷺ حينما تحدث عن رؤية المؤمنين لربهم جل وعلا في الجنة قال: **"فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا"** يقصد صلاتي الصبح والعصر لفضلهما.

وورد أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية في الصلوات الخمس **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ}** صلاة الفجر **{وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}** صلاتي الظهر والعصر **{وَمِنَ اللَّيْلِ}** صلاتي المغرب والعشاء وقيام الليل **{وَأَدْبَارَ السُّجُودِ}** صلاة النافلة.

التفسير الثاني: قالوا إن المقصود بقوله: **(وسبح)** حقيقة اللفظ أن يسبح النبي ﷺ ربه فهذا التسبيح فيه تمجيد لله وتعظيم وثناء على الله سبحانه وتعالى وفيه قوة للقلب يكسبه اليقين، لأن الذكر للقلب كالماء للزرع؛ فالزرع يحتاج إلى الماء للري، وبدونه يموت كذلك حياة القلوب بذكر الله عز وجل فأمر الله نبينا أن يسبح قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وهذا ما يعرف عندنا **بأذكار الصباح والمساء.**

وأفضل وقت لأذكار الصباح ما بين صلاة الفجر والشروق، وأفضل وقت لأذكار المساء ما بين العصر والمغرب، ولا مانع من أن تكون أذكار الصباح إلى الظهر وأن تكون أذكار المساء إلى نصف الليل، كما قال العلماء، لكن أفضل وقت قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وفسروا قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} بأن أفضل أوقات قيام الليل وقت السحر فأمر الله تعالى نبيه أن يكثر من التسبيح في هذا الوقت لأنه وقت القرب من الله عز وجل، و**{أَدْبَارَ السُّجُودِ}** أي بعد الصلوات المكتوبة؛ فسن لنا رسول الله التسبيح والتحميد والتكبير وقد ورد في ذلك عدة أحاديث منها:

1- عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين وكبر الله ثلاثا وثلاثين تلك تسع وتسعون، ثم قال تمام المئة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غفرت له خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) رواه البخاري ومسلم

2- وعن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة: أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور (المال الكثير) بالدرجات العلا والنعيم المقيم قال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ (أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم، وتسبقون من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (تسبحون الله وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة) فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ: (ذلك فضل الله

يؤتيه من يشاء) قال سمي: فحدثت بعض أهلي بهذا الحديث فقال: وهمت، إنما قال لك تسبح ثلاثا وثلاثين، وتحمد ثلاثا وثلاثين، وتكبر أربعا وثلاثين.

فرجعت إلى أبي صالح فقلت له ذلك، فأخذ بيدي فقال: الله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، (وسبحان الله، والحمد لله، حتى يبلغ من جميعهن ثلاثا وثلاثين) متفق عليه.

3- وعن زيد بن ثابت، قال: أمروا أن يسبحوا دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، ويحمدوا ثلاثا وثلاثين، ويكبروا أربعا وثلاثين، فأتي رجل من الأنصار في منامه، فقيل له: أمركم رسول الله أن تسبحوا . . .؟ (الحديث). قال: نعم. فقال: فاجعلوها خمسا وعشرين، واجعلوا فيها التهليل، فلما أصبح أتى النبي فذكر ذلك له، قال: اجعلوها كذلك. أخرجه النسائي

التهليل قول (لا إله إلا الله)

وورد في فضل التسبيح والتحميد أحاديث منها:

1. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ العظيم". أخرجه البخاري ومسلم

2. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ". أخرجه البخاري ومسلم

3. عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجنة". أخرجه الترمذي وصححه الألباني.

4. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ قَالَ: حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ، أَوْ زَادَ عَلَيْهِ". أخرجه مسلم

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: 41]

إنه مشهد عظيم مهيب مشهد القيامة وإيذان الله تعالى ببعث الناس من قبورهم، والخطاب هنا وإن كان للنبي محمد ﷺ إلا أنه خطاب لجميع أمته ومن يسمع هذه الآيات.

والخطاب ينقلنا وكأن الحدث الآن رأي عين؛ واستمع كأن الصوت الآن في أذنيك، قريب منك ليس ببعيد؛ بل كأن المشهد تراه بعينيك.

{وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ} والمنادي بإجماع علماء التفسير هو الملك الموكل بذلك إسرافيل.

والنبي ﷺ قال: "كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟" فقال الصحابة: فما نقول يا رسول الله؟ قال: "قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا". أخرجه الترمذي وصححه الألباني.

وأخبرنا رسول الله ﷺ أن القيامة ستقوم يوم الجمعة قال: "فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ". أخرجه مسلم.

وبيّن لنا النبي ﷺ هيئة خروج الناس من قبورهم فقال:

"إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا" ثُمَّ قَرَأَ: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) أخرجه البخاري ومسلم

ومعنى غرلاً: قطعة اللحم التي تؤخذ منا عند الختان تعود مرة أخرى

وهذه النفخة هي نفخة البعث والنشور، وقد فصلنا القول في هذا من قبل عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: 20] بما يغنى عن الإعادة.

{وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ} ما معنى مكان قريب؟

ذهب بعض المفسرين إلى تحديد اسم مكان بعينه، وظنوا أن هذا هو المقصود من الآية، لكن أرى من خلال فهم الآية وسياقها أن معنى مكان قريب أي أن الصوت يسمعه الجميع كأنه قريب منهم غير بعيد، فهو صوت يسمعه ملايين الخلق من

الإنس والجن والحيوانات، وكل الكائنات التي خلقها الله تبعث من قبورها بصيحة واحدة قوية لا تثنى ولا تكرر، وهذا كله بيان لقدرة الله جل وعلا.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: 42]

{يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ} بالحق أي أنها لا ريب فيها.

{ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} أي خروج الناس من قبورهم.

كان المشركون، كما سبق، يقيسون قدرة الله على قدرة الإنسان، فكان أحدهم يفتّت العظم البالي بيده متعجبًا ويقول ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ وغاب عنه أن الله الذي خلقها أول مرة قادر على إحيائها بعد موتها.

وفي هذه الآية يخبرنا الله تعالى أن بعث الناس من قبورهم يكون عقب صيحة واحدة، وليست الصيحة هي التي تمنحهم الحياة، بل يبعثهم الله بأمره؛ فهو سبحانه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، وتكون الصيحة إيذانًا بخروجهم من قبورهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ [ق: 43]

جاء بالضمير الدال على الجمع ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ في مقام يُظهر جلال الله وعظمته، ويؤكد أن الإحياء والإماتة بيده وحده، فهو سبحانه يخلق من العدم، ويحيي بعد الموت، ولا تكون حياة أحد ولا وفاته إلا بعلمه وإذنه، وما نراه من أسباب للموت لا يخرج عن قضائه وقدره، فإذا جاء أجل الإنسان لم يتقدم ولم يتأخر، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34]

وقوله تعالى ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ يذكّرنا بأن جميع العباد راجعون إلى الله؛ فالموت ليس نهاية الوجود، وإنما هو نهاية الحياة الدنيا وانتقال إلى حياة البرزخ، ثم يكون البعث والحياة الآخرة، حيث يصير الناس إلى الجنة أو النار، كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7]

ولهذا ينبغي أن يبقى الإيمان بالآخرة حيًّا في قلب المسلم، فقد ينكر بعض الناس البعث، ويظنون أن الحياة تنتهي بالموت، ويعتقد آخرون أن الأرواح تنتقل بعد

الموت إلى أجساد أخرى، أما المؤمن فيعلم أنه يعيش في الدنيا ابتلاءً واختبارًا، وأنه مهما طال عمره فمصيره إلى الموت، ثم إلى البعث والوقوف بين يدي رب العالمين.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: 44]

تصوّروا هذا المشهد العظيم الأرض التي ضمّت أعدادًا لا تُحصى من الموتى تتشقق عنهم، فيخرجون من قبورهم سراعًا، ويساقون إلى المحشر بأمر الله.

وكلمة ﴿سِرَاعًا﴾ تصوّر سرعة خروجهم واجتماعهم؛ فلا يعجز الله بعثهم، ولا يحتاج حشرهم إلى زمن أو مشقة. وكما قال سبحانه **﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾**

عن بسر بن جحاش القرشي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بصق يوما في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال: (قال الله تعالى: يا ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأنى أوان الصدقة ؟!) أخرجه ابن ماجه وحسنه الألباني.

أما أرض المحشر، فقد وصفها النبي ﷺ بقوله **"يُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها معلم لأحد".**

وقرصة النقي هي الرغيف المصنوع من الدقيق الأبيض المنقّى، والمراد أنها أرض مستوية لا علامات فيها يهتدي بها الناس أو يتعرفون بها إلى أملاكهم وحدودهم، فلن يقال هذه دولة المغرب وهذه دولة مصر، وهذا شارع رقم كذا أو طريق كذا... كل هذا ذهب قد انتهى فهي أرض جديدة لا معلم فيها لأحد، قال تعالى **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48]**

فإذا تأملنا خروج الخلائق من قبورهم واجتماعهم للحساب، أدركنا عظمة ذلك اليوم. ومع هول المشهد، فإن حشرهم جميعًا يسير على الله الذي لا يعجزه شيء.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: 45]

ثم وجّه الله تعالى الخطاب إلى نبيه ﷺ فقال: **﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾**. كان النبي يدعو قومه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والبعث، فيقابل بعضهم دعوته بالتكذيب، ويصفونه بالشاعر والكاهن والساحر والمجنون، وكان ذلك يؤلمه؛ فهو بشر يحب لقومه الهداية ويخشى عليهم عاقبة الإعراض، وقد بلغ من عناد بعضهم أن قالوا: **﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** [الأنفال: 32] وكان الأولى بهم أن يسألوا الله الهداية إن كان ما جاءهم هو الحق.

فطمأن الله نبيه بقوله ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لا تخفى عليه أقوالهم ولا افتراءاتهم، ثم بيّن له حدود مهمته فقال: **﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾**. أي إنك تبلّغهم رسالة الله وتدعوهم إليها، ولا تملك أن تُكره قلوبهم على الإيمان. وهذا نظير قوله تعالى: **﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾** [البقرة: 256] **وقوله: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾** [الغاشية: 22]

وهذا توجيه للداعية أيضًا؛ فقد يشتد حرصه على هداية من يحب، حتى يتمنى لو استطاع أن يحمله على الطاعة حملًا، لكن القلوب لا تُفتح بالقهر، وإنما يُدعى الناس بالحكمة والبيان، ويُترك أمر هدايتهم إلى الله، كما قال تعالى: **﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾** [الشعراء: 4] فالله قادر على أن يُخضعهم، لكنه جعل هذه الحياة دار ابتلاء، وكلّف الإنس والجن، وبيّن لهم طريق الهدى وطريق الضلال.

ومهمة الأمة أن تحمل ما هداها الله إليه، فتبيّن الحق وترشد إليه، وتدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة. فمن آمن فالحمد لله، ومن أعرض فحسابه على الله، وقد قال سبحانه لخير خلقه ﷺ **﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾**.

ثم خُتمت السورة بقوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾. فليكن القرآن أصل التذكير والدعوة، وليس معنى الآية أن التذكير يُوجَّه إلى الخائفين وحدهم، بل إن أتمّ

الناس انتفاعًا به من كان في قلبه خشية من الله وتصديق بوعده ووعيده، فإذا سمع آياته تدبّرها وتأثر بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: 11]

وهكذا تجمع خاتمة سورة ق أصولًا عظيمة من الإيمان؛ فالله يحيي ويميت، وإليه المصير، والبعث والحشر عليه يسيران، وتعلّمنا أن نقابل التكذيب بالصبر ومواصلة البلاغ، وأن ندعو الناس إلى الله بالقرآن دون إكراه، فمن خاف وعيد الله ورجا رحمته وجد في هذه الآيات تذكرةً لقلبه واستعدادًا للقائه.

نسأل الله أن يحيي قلوبنا بالقرآن، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يتوفانا وهو راضٍ عنا، غير فاتنين ولا مفتونين.

الآثار الإيمانية والتربوية

1-أن صاحب الحق قد يسمع التكذيب والسخرية والافتراء، وأن الطريق لا يخلو من الأذى. والمطلوب ألا يحمله ذلك على ترك رسالته أو مقابلة الإساءة بمثلها، بل يثبت ويصبر ويواصل عمله، مستعينًا بالله، عالمًا أن الله يسمع ما يقوله أعداؤه ويعلم ما يخفونه.

2-للداعية مهمتان: عبادة الله، ودعوة الناس إليه. فإن لم يستجب الناس لدعوته لم تسقط عنه عبادة ربه، ولم تصبح قيمة حياته متوقفة على قبولهم أو رفضهم.

3-لم يقتصر التوجيه الإلهي للنبي ﷺ على الأمر بالصبر، بل قرنه بالتسبيح والصلاة، لأن مواجهة الأذى تحتاج إلى زاد روحي يقوي القلب.

4-كلما اشتدت الفتن والضغوط كان المؤمن أشد حاجة إلى الصلاة والذكر، لا إلى الابتعاد عنهما.

5- الأمر بالتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل الغروب تنبيه إلى فضل صلاتي الفجر والعصر، وهما صلاتان قد تشق المحافظة عليهما بسبب النوم أو الانشغال. وتربي الآيات المؤمن على تنظيم يومه حول الصلاة، لا تنظيم الصلاة حول مشاغله، وعلى ألا يسمح للدنيا أن تصرفه عن موعده مع الله.

6-ذكر الله في أول النهار وآخره يحفظ صلة المؤمن بربه، ويحصن قلبه من الغفلة والوساوس، ويمنحه سكينة تعينه على أعباء الحياة. فالذكر ليس كلمات

تقال بلا حضور، بل تجديد للتوحيد والثقة بالله والاستعانة به، حتى يبدأ المسلم يومه بالله ويختمه بذكره.

7-قيام الليل وذكر الله في السحر يغذيان الإخلاص، ويقويان القلب، ويمنحان العبد زادًا لا يجده في ضجيج النهار.

8-الإيمان بأهوال القيامة لا يقصد به إدخال الإنسان في اليأس، وإنما إيقاظه من الغفلة وحمله على الاستعداد؛ فالخوف المحمود هو الذي يدفع إلى التوبة والصلاة ورد المظالم والعمل الصالح، أما الخوف الذي يقعد عن العمل أو يوقع في القنوط فليس هو المقصود من الوعيد القرآني.

9-الموت في ميزان القرآن ليس فناءً نهائيًا، وإنما انتقال من دار العمل إلى البرزخ، ثم إلى البعث والحساب، وهذه العقيدة تمنح الحياة معناها الحقيقي؛ فالإنسان لم يخلق ليجمع متاعًا ثم يزول، بل ليعبد الله ويبتلى، ثم يلقى جزاء اختياره، ومن استحضر ذلك أحسن استثمار عمره ولم يجعل الدنيا أكبر همه.

10-مشهد تشقق الأرض عن الخلائق وخروجهم سراعًا يملأ القلب هيبة لذلك اليوم، حيث تزول معالم الدنيا وحدودها وملكياتها، ويبرز الجميع لله الواحد القهار.

11-أن الله يسمع أقوال المؤذين ويعلم افتراءاتهم ولا يخفى عليه شيء من أمرهم. وهذا يخفف تألم المؤمن، ويمنعه من الانشغال المفرط بالرد على كل إساءة، ويجعله يفوض أمره إلى الله مع الاستمرار في الحق.

12-ليست مهمة الداعية أن يملك قلوب الناس أو يضمن استجابتهم، وإنما عليه البيان بالحكمة والموعظة الحسنة، أما الهداية والتوفيق فبيد الله، وهذا الفهم يحمي الداعية من اليأس إذا أعرض الناس، ومن الغرور إذا استجابوا، لأنه يعلم أن عليه البلاغ، وأن النتائج ليست ملكًا له.

13-أن الإيمان الذي ينفع صاحبه لا يصنعه القهر، وإنما يقوم على الاقتناع والانقياد الصادق. ومن ثم تكون الدعوة بالبيان والرفق والحكمة.

14-إعراض بعض الناس لا يعني التوقف عن دعوتهم، كما أن استمرار دعوتهم لا يعني تحميل النفس مسؤولية اختياراتهم، والتوازن الصحيح أن يبذل المسلم وسعه في البيان والقدوة والدعاء، ثم يترك النتيجة لله.

15-ختمت السورة بالأمر بالتذكير بالقرآن، لأنه أعظم ما يحيي القلوب ويقيم الحجة ويبين طريق الهدى، وهذا يوجه الداعية إلى أن تكون رسالته مستمدة من الوحي، لا من الأهواء والانفعالات، وأن يعرض القرآن بفهم صحيح وأسلوب حكيم، ويصل دلالاته بواقع الناس من غير تحريف ولا تكلف.

16-أتم الناس انتفاعًا بالقرآن من كان في قلبه خوف من وعيد الله ورجاء لرحمته؛ لأن القلب الخاشع يستقبل الأمر بالقبول، والنهي بالحذر، والوعد بالشوق، والوعيد بالخوف. ولذلك ينبغي للمؤمن أن يسأل الله قلبًا خاشعًا، وأن يزيل من قلبه أسباب القسوة والكبر التي تحول بينه وبين التأثر بكلام الله.

17-بناء شخصية المؤمن المتوازنة: فهذه الآيات تجمع بين الاعتبار بالتاريخ، والتأمل في الكون، وتدبر القرآن، والصبر على الأذى، وكثرة الذكر، والاستعداد للآخرة، والدعوة بالحكمة. ومن جمع هذه المعاني نشأت فيه شخصية إيمانية متوازنة: قلبها حي، وعقلها متدبر، ولسانها ذاكر، وجوارحها عاملة، وموقفها من الناس قائم على الرحمة والبيان، وغايتها الاستعداد للقاء الله.

المعنى الإجمالي للآيات:

1-الصبر هو الموقف الصحيح أمام التكذيب والسخرية والأذى في طريق الدعوة.

2-العبادة والذكر هما الزاد الروحي الذي يعين المؤمن على الثبات أمام الفتن والأذى.

3-للمؤمن والداعية مهمتان: عبادة الله ودعوة الخلق إليه، فإذا لم يستجب الناس لم يترك عبادة ربه.

4-التسبيح الوارد في الآيات يشمل الصلاة عند طائفة من المفسرين، ويشمل حقيقة ذكر الله والثناء عليه عند آخرين.

5-في الآيات تأكيد فضل المحافظة على الصلوات، ولا سيما صلاتي الفجر والعصر.

6-من أفضل أوقات أذكار الصباح ما بين الفجر والشروق، وأفضل أوقات أذكار المساء ما بين العصر والمغرب.

7-قيام الليل، وخصوصًا في وقت السحر، من أعظم أسباب قوة القلب والقرب من الله.

8-المحافظة على التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات سبب لمغفرة الذنوب ورفعة الدرجات.

9-ذكر الله عبادة ميسرة يستطيعها الغني والفقير، ويدرك بها العبد أجورًا عظيمة.

10-لا ينبغي احتقار الأذكار اليسيرة؛ فقد تكون خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان.

11-مشهد النداء والصيحة يرسخ اليقين بحقيقة القيامة وقرب وقوعها.

12-النفخة إيذان بالبعث، أما الذي يحيي الموتى ويخرجهم من قبورهم فهو الله وحده.

13-سيحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا، كما بدأ الله خلقهم أول مرة.

14-الإحياء والإماتة بيد الله وحده، ولا يقع موت إنسان إلا بعلمه وإذنه.

15-إذا جاء الأجل فلا يستطيع أحد تقديمه أو تأخيره.

16-الموت ليس نهاية الوجود، وإنما انتقال من الدنيا إلى البرزخ، ثم إلى البعث والحساب.

17-الاعتقاد بتناسخ الأرواح وانتقالها إلى أجساد أخرى بعد الموت مخالف لما جاء به الوحي.

18-خروج الخلائق جميعًا من قبورهم وحشرهم في مكان واحد يسير على الله.

19-أرض المحشر أرض جديدة مستوية، لا معالم فيها ولا حدود ولا أملاك لأحد.

20-استحضار مشاهد القيامة يزهد في الدنيا، ويبعث على التوبة والعمل والاستعداد للقاء الله.

21-ينبغي المبادرة بالصدقة والطاعة قبل حضور الموت؛ لأن التمني عند بلوغ الروح الحلقوم لا ينفع.

22-الله يعلم ما يقوله المكذبون والمسيئون، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ ولكل داعية إلى الحق.

23-مهمة الرسول والداعية هي البلاغ والبيان، وليست إجبار الناس على الإيمان.

24-القلوب لا تفتح بالقهر، وإنما تدعى بالحكمة والموعظة الحسنة والرفق.

25-هداية التوفيق بيد الله، وعلى الداعية أن يبذل السبب ويفوض النتائج إليه.

26-عدم استجابة الناس لا يبرر ترك الدعوة، كما لا يجوز أن يحمل الداعية نفسه مسؤولية اختيارهم.

27-القرآن هو الأصل الأعظم في التذكير والدعوة وإحياء القلوب.

28-أكثر الناس انتفاعًا بالقرآن من خاف وعيد الله وصدّق بوعده وخشيه بالغيب.

29-الإيمان بالآخرة لا ينبغي أن يبقى معلومة ذهنية، بل يجب أن يظهر أثره في العبادة والسلوك ورد الحقوق.

30-جمعت خاتمة سورة ق أصولًا عظيمة: قدرة الله، والبعث، والحشر، والمصير إليه، والصبر، والذكر، وحكمة الدعوة، والتذكير بالقرآن.

****

الخاتمة

- خاتمة الكتاب.

- أهم التوصيات.

- فهرس المحتويات

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وله الحمد أولًا وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد هذه الرحلة في رحاب سورة ق، يتبين لنا أن هذه السورة ليست مجرد عرض لأدلة البعث أو وصف لمشاهد القيامة، وإنما هي نداء متتابع لإيقاظ الإنسان من غفلته، وتصحيح علاقته بربه، وإعادة ترتيب أولوياته على ضوء المصير الذي ينتظره.

ونرى أنه من أول السورة إلى آخرها يواجه القرآن الإنسان بالحقيقة التي يحاول الغافلون الهرب منها: أنه مخلوق لله، معلوم السر والعلانية، محفوظ القول والعمل، محكوم بالأجل، ثم موقوف بين يدي ربه ليجازى بما قدم.

افتتحت السورة بالقسم بالقرآن المجيد، وإثبات صدق الوحي، والرد على من تعجبوا من رسالة النبي ﷺ واستبعدوا البعث بعد الموت.

ثم أقامت الحجة عليهم بعلم الله المحيط بما تأكل الأرض من أجسادهم، وبالكتاب الحفيظ الذي لا يضيع منه شيء، وبآيات القدرة الظاهرة في السماء والأرض والجبال والنبات والمطر وإحياء الأرض بعد موتها. فالذي أنشأ الخلق أول مرة، وبنى هذا الكون المحكم، وأخرج الحياة من الأرض الميتة، لا يعجزه أن يعيد الإنسان بعد أن يصير ترابًا.

ثم عرضت السورة مصارع المكذبين السابقين، لتقرر أن التكذيب بالرسل والوعيد ليس أمرًا جديدًا، وأن سنن الله لا تحابي أمة ولا فردًا.

وأعقب ذلك بيان إحاطة علم الله بالإنسان، حتى بما توسوس به نفسه، وقرب ملائكته منه، وكتابة كل ما يتلفظ به؛ ليعيش المؤمن مستشعرًا رقابة الله، حافظًا لقلبه ولسانه وجوارحه.

وانتقلت السورة من إقامة الدليل إلى عرض المشهد، فجاءت سكرة الموت بالحق، ونفخ في الصور، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد، وكشف عنها غطاء الغفلة، فصار بصرها حديدًا. وهناك يحضر الكتاب، ويشهد القرين، وتقام الحجة، وتنقطع الأعذار، ويؤمر بإلقاء الكفار المعاندين في جهنم. ثم يعرض مشهد الخصومة بين الإنسان وقرينه، ويعلن الحكم الإلهي العادل الذي لا يتبدل ولا يظلم فيه أحد.

وفي مقابل مشهد النار وما فيه من الخزي والعذاب، تعرض السورة الجنة مقربة للمتقين غير بعيدة، وتبين أن طريقها خشية الرحمن بالغيب، والرجوع إلى الله بقلب منيب، والمحافظة على عهده، والاستعداد للقائه. فالطريقان واضحان، ونهاية كل منهما ظاهرة، والإنسان هو الذي يختار في الدنيا الطريق الذي يلقى نهايته في الآخرة.

ثم ختمت السورة بالتذكير بمصارع الأمم، والدعوة إلى حياة القلب وحضور السمع، والاستدلال بخلق السماوات والأرض على كمال قدرة الله، والأمر بالصبر والتسبيح والعبادة، واستحضار يوم النداء والخروج.

وانتهت إلى بيان منهج الدعوة: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾؛ فالقرآن هو أصل التذكير، والقلوب لا تفتح بالقهر، وإنما تعرض عليها آيات الله بالحكمة والرحمة والبيان، ثم تكون الهداية بيد الله وحده.

وقد كشفت هذه السورة أن أصل كثير من الانحراف هو الغفلة: الغفلة عن عظمة الله، وعن مراقبته، وعن كتابة الأعمال، وعن الموت، وعن البعث، وعن المصير. كما بينت أن علاج هذه الغفلة يكون بالقرآن، والنظر في آيات الله الكونية، والاعتبار بمصير السابقين، ومحاسبة النفس، وكثرة الذكر، وحضور القلب في العبادة، وصحبة الوعد والوعيد حتى يصبح الإيمان بالآخرة قوة حاضرة توجه حياة الإنسان.

ومن أعظم ما تعلمناه أن الإيمان باليوم الآخر ليس معلومة عقدية منفصلة عن الواقع، بل هو أساس للاستقامة كلها. فمن أيقن أنه سيحاسب حفظ لسانه، وأدى الأمانة، ورد المظالم، وأحسن إلى الخلق، وصبر على الطاعة، وترك المعصية، وبادر إلى التوبة.

ومن استحضر قرب الموت لم يخدعه طول الأمل، ومن استحضر وقوفه بين يدي الله لم يغتر بمدح الناس أو يستخف بنظر الله إليه.

وإذا كان هذا الكتاب قد قرب بعض معاني سورة ق وهداياتها، فإن معاني القرآن لا تنقضي، ولا يستغني القارئ عن العودة إلى كلام الله نفسه، وتكرار تلاوته بتدبر وخشوع.

والمقصود من هذا الشرح أن يكون مفتاحًا للتدبر، فخير ثمرة لهذا الكتاب أن يعود المسلم إلى سورة ق بقلب جديد، فيقرأها كأنه يسمعها أول مرة، ويجعلها ميزانًا يراجع به إيمانه وعمله واستعداده للقاء الله.

وختامًا، أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل، ويغفر ما وقع فيه من زلل أو تقصير، وأن يجعله نافعًا لكل من قرأه أو تعلمه أو علّمه، وأن يرزقنا حسن التدبر وصدق العمل، وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا، وقائدنا إلى رضوانه وجنته.

كما نسأله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يهون علينا سكرات الموت، وأن يحشرنا في زمرة المتقين، وأن يدخلنا جنته بسلام، إنه أرحم الراحمين.

****

أهم التوصيات

1. **المداومة على تلاوة سورة ق بتدبر**

ينبغي ألا تنتهي صلة القارئ بالسورة بانتهاء هذا الكتاب، بل يقرأها على مهل، ويستحضر تسلسل مشاهدها ومقاصدها، ويقف عند الآيات التي تمس قلبه وواقعه، وحبذا لو كان هذا في قيام الليل.

2. **الجمع بين الحفظ والفهم والعمل**

يوصى بحفظ سورة ق مع فهم مفرداتها ومقاطعها، وربط كل مقطع بما يدعو إليه من إيمان أو خلق أو عمل؛ لأن الحفظ الذي يصحبه الفهم أثبت في القلب وأقوى أثرًا في السلوك.

3. **تخصيص مجلس دوري لتدبر القرآن**

الكتاب يقدم مادة كاملة للمدارسة في الأسر وحلقات المساجد، فلو تم تخصيص مجلس أسبوعي أو دوري لمدارسة السورة آية آية، بحيث تجمع المدارسة بين التلاوة الصحيحة، وشرح المعنى، واستخراج الهدايات، وتحديد عمل تطبيقي.

4. **تحويل الهدايات إلى برنامج عملي**

لا يكتفى بقراءة الآثار الإيمانية والتربوية، بل يختار القارئ منها ما يحتاج إليه، مثل حفظ اللسان، ومحاسبة النفس، والمحافظة على الأذكار، والاستعداد للموت، ورد المظالم، ويضع لنفسه خطوات عملية قابلة للمتابعة.

5. **إحياء الإيمان بالآخرة في الخطاب الدعوي والتربوي**

تحتاج النفوس في زمن الانشغال بالماديات إلى تذكير متوازن بالموت والبعث والحساب والجنة والنار؛ تذكير يبعث على العمل ولا يوقع في اليأس، ويجمع بين الخوف من الوعيد والرجاء في رحمة الله.

6. جعل القرآن أصلًا في الدعوة والإصلاح

ينبغي للدعاة والخطباء والمربين أن ينطلقوا في تذكير الناس من آيات القرآن، وأن يعرضوها ببيان صحيح وأسلوب حكيم، مع ربطها بمشكلات الواقع وحاجات القلوب دون تكلف أو تحميل للنص ما لا يحتمل.

7. العناية بحضور القلب عند التلاوة والسماع

من أهم أسباب الانتفاع بالقرآن إلقاء السمع مع حضور القلب؛ ولذلك يوصى باختيار وقت هادئ للتلاوة، وإبعاد المشتتات، وقراءة مقدار يمكن تدبره، وتدوين ما يظهر من أسئلة وفوائد للرجوع إلى أهل العلم.

8. الرجوع إلى المصادر الموثوقة

ينبغي الرجوع في فهم القرآن إلى كتب التفسير المعتمدة وكلام العلماء الراسخين، والتثبت من الأحاديث والقصص المنتشرة، ولا سيما ما يتصل بالغيب والموت والجن والقرين وأشراط الساعة؛ لأن هذه الأبواب لا تثبت بالتجارب والحكايات، وإنما بالوحي الصحيح.

9. تربية الأبناء على مراقبة الله

تقرر السورة أن الله يعلم وسوسة النفس وأن الأقوال والأعمال مكتوبة؛ وهذه المعاني تصلح أساسًا لتربية الأبناء على المراقبة الذاتية والإخلاص، بدل الاقتصار على الرقابة الخارجية أو التخويف من الناس.

10. الاستعداد للموت قبل نزوله

يوصى بالإكثار من التوبة، ورد الحقوق، وكتابة الوصية، وقضاء الديون، وصلة الأرحام، واغتنام الصحة والفراغ في الطاعات؛ لأن الموت يأتي بالحق، وإذا حضر انقطع زمن العمل والاختيار.

11. الجمع بين الخوف والرجاء

ينبغي عند تدريس السورة ألا يقتصر الخطاب على مشاهد العذاب، بل يجمع بينها وبين سعة رحمة الله وقرب الجنة من المتقين؛ حتى ينشأ القلب على خوف يحجزه عن المعصية، ورجاء يحمله على التوبة والعمل.

12. الدعاء بالثبات وحسن الخاتمة

العلم وحده لا يكفي ما لم يصحبه توفيق الله؛ ولذلك ينبغي أن يكثر القارئ من سؤال الله قلبًا منيبًا، ولسانًا ذاكرًا، وعملًا صالحًا، وثباتًا عند الموت، وأمنًا يوم الفزع الأكبر، وفوزًا بالجنة والرضوان.

****

تم الكتاب بفضل الله وعونه
والحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	2
التمهيد: مقدمة بين يدي السورة	6
الفصل الأول: القرآن المجيد وحقيقة البعث تفسير الآيات: (1:5)	11
الفصل الثاني: آيات الله الكونية الدالة على قدرته تفسير الآيات: (6:11)	29
الفصل الثالث: الوعيد الإلهي للمكذبين تفسير الآيات: (12:14)	50
الفصل الرابع: إحاطة علم الله بالإنسان تفسير الآيات: (15:18)	66
الفصل الخامس: حقيقة الموت ونفخة البعث والنشور تفسير الآيات: (19:20)	89
الفصل السادس: مشهد العرض والخصومة بين يدي الله تفسير الآيات: (21:26)	112
الفصل السابع: القرين والخصومة يوم القيامة تفسير الآيات: (27:29)	123
الفصل الثامن: مشهد الجنة والنار تفسير الآيات: (30:37)	141
الفصل التاسع: لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ تفسير الآيات: (36:38)	156
الفصل العاشر: فذكِّر بالقرآن مَن يخاف وعيد تفسير الآيات: (39:45)	172
الخاتمة	186
أهم التوصيات	189
فهرس المحتويات	192